فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا

— قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى « ومنارا » كمنار الطريق —

٢٩ ذي القعدة ١٣٣٩ ـ ١١ الاسد (ص٢) سنة ١٢٩٩ هش ٤ أغسطس سنة ١٩٢١

تفسير القرآن الحكيم

(١٤٨) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٩) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٥٠) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا. فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ

قد كان ما تقدم من هذه السورة بياناً مفصلا لعقائد الاسلام في الالهيات والنبوة والبعث ودحضاً لشبهات المشركين التي كانوا يحتجون بها على شركهم وتكذيبهم للرسل وانكارهم للبعث، وعلى أعمالهم التي هي مظاهر شركهم من تحريم وتحليل، وخرافات وتضليل، وأوهام وأباطيل، وقد جاء في هذه الآيات بشبهة من أكبر شبهاتهم التي ضل بمثلها كثير من الكفار قبلهم، ولم يكونوا أوردوها على الرسول (ص) ولكن الله تعالى جعل هذه السورة جامعة لكل ما يتعلق بتقرير العقائد واثباتها بالحجة الناهضة وابطال ما يرد عليها من الشبهات الداحضة، ماقيل منها، وما سيقال للرسول (ص) بعد نزولها، فذكرها ورد عليها بما يبطلها، فكان ذلك من اخباره بأمور الغيب قبل وقوعها، وذلك قوله عز وجل

﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ أي سيقول هؤلاء المشركون لو شاء الله تعالى أن لا نشرك به من اتخذنا له من الاولياء والشفعاء من الملائكة والبشر وأن لا نعظم ماعظمنا من تماثيلهم وصورهم أو قبورهم وسائر ما يذكر بهم — وأن لايشرك آباؤنا من قبلنا كذلك، لما أشركنا ولا أشركوا — ولو شاء أن لا نحرم شيئاً مما حرمنا من الحرث والانعام وغيرها لما حرمنا. ولكنه شاء أن نشرك هؤلاء الاولياء والشفعاء به وهم له يقربوننا اليه زلفى، وشاء أن نحرم ما حرمنا من البحائر والسوائب وغيرها فحرمناها، فاتياننا ما ذكر دليل على مشيئة الله تعالى له، بل على رضاه وأمره به أيضاً — كما حكى عنهم في آية أخرى بقوله (٧: ٢٧ واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها. قل ان الله لايأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون؟) وقيل أرادوا ان مشيئته ملزمة ومجبرة فهم غير مختارين في ذلك. ولما وقع هذا القول منهم بالفعل حكاه تعالى عنهم بقوله في سورة النحل (١٦: ٣٥ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء، كذلك فعل الذين من قبلهم، فهل على الرسل الا البلاغ المبين؟) وفي معناه قوله تعالى في سورة الزخرف (٤٣: ١٩ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم. ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون)

وقد رد تعالى شبهتهم هنا بقوله ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ﴾ الخ أي مثل هذا التكذيب من مشركي مكة للرسول (ص) لما جاء به من توحيد الله في الالوهية والربوبية ومنها حق التشريع والتحليل والتحريم قد كذب الذين من قبلهم لرسلهم — أي مثله في كونه تكذيباً جهلياً غير مبني على أساس من العلم . والرسل ولا سيما خاتمهم (عليهم الصلاة والسلام) قد أقاموا الحجج على التوحيد وغيره وأيدهم الله تعالى بالآيات البينات ، ولكن المكذبين لم ينظروا في هذه الآيات نظر الأنصاف لاستبانة الحق بل أعرضوا عنها وأصروا على جحودهم وعنادهم حتى ذاقوا بأسنا وهو عذاب الاستئصال للمعاندين الذين اقترحوا على رسلهم آيات معينة فجعلها الرسل نذيرا لهم بالاستئصال فماروا بالنذر، ومادونه لغيرهم — ولوكانت مشيئة الله لما كانوا عليه من الشرك والمعاصي اجبارا لخرج ذلك عن كونه من أعمالهم لما عاقبهم عليه وهو قد قال انه أخذهم بذنوبهم وأهلكهم بظلمهم وكفرهم — ولوكانت مشيئته لذلك متضمنة لرضاه عن فاعله وأمره اياه به خلافا لما قال الرسل لما عاقبهم عليه تصديقا للرسل — فقوله تعالى حتى ذاقوا بأسنا بيان للبرهان الفعلي الواقع الدال على صدق الرسل في دعواهم وبطلان شبهات المشركين المكذبين لهم

وبعد هذا التذكير بهذا البرهان أمر الله رسوله (ص) ان يطالب المشركين بدليل علمي على زعمهم فقال ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾ أي هل عندكم بما تقولون علم ما تعتمدون عليه وتحتجون به فتخرجوه لنا لنبحث معكم فيه ونعرضه على ما جئنا كم به من الآيات العقلية والحكية عن وقائع الامم التي قبلكم ونتصب بينهما الميزان القسط ليظهر الراجح من المرجوح ؟ والاستفهام هنا للتعجيز والتوبيخ ، ولذلك قفى عليه ببيان حقيقة حالهم فقال ﴿ ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون ﴾ أي لستم على شيء ما من العلم بل ما تتبعون في بقائكم على ما أنتم عليه من عقيدة وقول في الدين وعمل به الا الظن ، وهو في اللغة ما ليس من مدركات الحس ولا ضروريات العقل ، وقد يكون منه ما يؤخذ من نظريات يطمئن لها القلب ويرجحها العقل وهم لم يكونوا على هذا النوع منه وان كان لا يكفي في اثبات أصلي الدين من عقائده وقواعد التشريع التي يجب الجزم بها ، بل كانوا يتبعون أدنى درجاته وأضعفها

لا يعدونها، وهي درجة الخرص أي الحزر والتخمين الذي لا يمكن ان يستقر عنده الحكم بخرص ما يأتي من النخيل أو الكرم من التمر والزبيب وكثيرا ما يطلق الخرص على لازمه الذي يندر ان يفارقه وهو الكذب ، وقد فسر به هنا

بعد ان نفى عنهم أدنى ما يقال له علم ، وحصر ما هم عليه من الدين في أدنى مراتب الظن ، مع ان أعلاها لا يغني من الحق من شيء، أثبت لذاته العلية في مقابلة ذلك الحجة العليا التي لا تعلوها حجة فقال

﴿ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ الحجة في اللغة الدلالة المبينة للمحجة أي المقصد المستقيم — كما قال الراغب — فهي من الحج الذي هو القصد . والمعنى قل أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين الذين بنوا قواعد دينهم على أساس الخرص الذي هو أضعف الظن، بعد تعجيزك إياهم عن الإتيان بأدنى دليل أو قول يرتقي الى أدنى درجة من العلم — :ان لم يكن عندكم علم ما في أمر دينكم ، فلله وحده أعلى درجات العلم ، بما بعثني به من محجة دينه القويم وصراطه المستقيم ، وهو الحجة البالغة ما أراد من احقاق الحق وازهاق الباطل، وهي ما بينه في هذه السورة وغيرها من الآيات البينات على أصول العقائد وقواعد الشرائع وموافقتها لحكم العقول السليمة والفطر الكاملة وسنن الله في الاجتماع البشري وتكميلها للنظام العام الذي يعرج عليه الانسان في مراقي الكمال، ولكن لا يكاد يهتدي بهذه الآيات المنبثة في الاكوان ، المبينة في آية الله الكبرى وهي القرآن، الا المستعد للهداية وهو المحب للحق الحريص على طلبه، الذي يستمع القول فيتبع أحسنه ، دون من أطفأ باتباع الهوى نور فطرته ، أو استخدم عقله لكبريائه وشهوته، المعرض عن النظر في الآيات استكبارا عنها، أو حسدا للمبلغ الذي جاء بها ، أو جمودا على تقليد الآباء، واتباع الرؤساء ، فانما الحجة علم وبيان، لا قهر ولا إلزام ،وما على الرسل الا البلاغ، والا فلو شاء هدايتكم بغير هذه الطريقة التي أقام أمر البشر عليها وهي التعليم والارشاد، وما ثم الا الخلق والتكوين أو القهر والالزام ، لهداكم أجمعين بجعلكم كذلك بالفطرة كما خلق الملائكة مفطورين على الحق والخير وطاعة الرب (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) أو بخلق الطاعة فيكم بغير شعور منكم ولا ادارة كجريان دمائكم في أبدانكم ، وهضم معدكم لطعامكم ، وحينئذ لا تكونون من نوع الانسان الذي قضت الحكمة وسبق العلم بأن يخلق مستعدا لاتباع الحق

والباطل ، وعمل الخير والشر ، وكونه يرجح بعض ما هو مستعد له على بعض بالاختيار ، واختياره لاحد النجدين على الآخر بمشيئته لا ينفي مشيئة الله تعالى ولا يعارضها فانه تعالى هو الذي شاء ان يجعله فاعلا باختياره ، كما بيناه من قبل في مواضع . ومثل هذه الآية قوله تعالى من هذه السورة (٦ : ١٠٦ ولو شاء الله ما أشركوا) وقوله منها أيضا (٣٦ ولو شاء لجمعهم على الهدى) وأيضا (٣٩ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) وقوله (٥ : ٥١ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) وقوله (١١ : ١١٨ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وقوله (١٠ : ٩٩ ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) فالآيات في هذا المعنى كلها بيان لسنة الله في خلق الانسان كما بيناه في تفسير ما تقدم منها وفي مواضع أخرى وهي حجة على المجبرة والقدرية جميعا لا لهما

وقد تمارى المعتزلة والاشعرية في تطبيق هذه الآيات على مذاهبهما في انكار تعلق المشيئة الالهية بما هو قبيح كالشرك والمعاصي وفي نفي عقيدة الجبر عند المعتزلة واثبات الاشعرية لها ، وقد جمعنا فيما جرينا عليه آنفا بين رد الشبهتين لان المفتونين بهما الى اليوم كثيرون ينتمون الى مذاهب مالهم بها من علم

وقد رأينا ان نلخص اقوال المفسرين من السلف والخلف في الآيات ليعرف منه ضعف المذاهب النظرية المتعارضة لاهل الكلام . قال الزمخشري في تفسير « كذلك كذب الذين من قبلهم » بعد ان قال ان احتجاجهم كذهب المجبرة بعينه مانصه : اي جاؤا بالتكذيب المطلق لان الله عزوجل ركب في العقول وانزل في الكتب ما دل على غناه وبراءته من مشيئة القبائح وارادتها والرسل اخبروا بذلك . فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وارادته فقد كذب التكذيب كله وهو تكذيب الله وكتبه ورسله ونبذ ادلة العقل والسمع وراء ظهره اه

وقد رد عليه خصومهم الاشعرية بان الرسل لم تنف بل أثبتت وقوع كل شيء بمشيئة الله وتقديره وان كان قبيحا ممن فعله لما يترتب عليه من عقابه عليه لاتيانه اياه باختياره كالكفر والمعصية ، وأن المشيئة والارادة منه تعالى ليست بمعنى الرضا ولا تستلزمه ، وقرر جمهورهم ان مراد المشركين بشبهتهم ان الله تعالى راض عن شركهم وتحريمهم لما حرموا بدليل مشيئته له منهم دون غيره لا انه اجبرهم

عليه . وقد احتج السلف بالآية على منكري القدر قبل حدوث مذهبي المعتزلة والاشعرية فقد روى اكثر مدوني التفسير المأثور وابو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس انه قيل له ان أناساً يقولون ان الشر ليس بقدر، فقال ابن عباس بيننا وبين اهل القدر هذه الآية (سيقول الذين اشركوا لوشاء الله ما أشركنا - الى قوله - قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين) واخرج ابو الشيخ عن علي بن زيد قال انقطعت حجة القدرية عند هذه الآية اي الاخيرة

وقال الحافظ ابن كثير في قوله تعالى في رد الآية على شبهتهم : اي بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء ، وهي حجة داحضة باطلة لأنها لوكانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وادال عليهم رسله الكرام واذاق المشركين من اليم الانتقام اه وقد جزم ابن جرير أيضا بأن الله تعالى كذب المشركين هنا بزعمهم ان الله رضي منهم عبادة الاوثان وتحريم ما حرموا من الحرث والانعام لا بقولهم (لوشاء الله ما اشركنا) الخ فانه قول صحيح أي ولكنه حق أريد به باطل واستدل على ذلك بتشبيه تعالى تكذيبهم بتكذيب من كان قبلهم من المشركين لرسل الله اليهم وما جاؤهم به من التوحيد وانكار الشرك وما لم يأذن الله به من الشرع في التحليل والتحريم والعبادة وغير ذلك. ولكن عبارته في هذا المقام مضطربة ليست كسائر عباراته في الجلاء . وقد قال في آخرها ان لهاعنده عللا أخرى غير ما ذكره يطول بذكرها الكتاب (قال) «وفيما ذكرناه كفاية لمن وفق لفهمه» وماقال هذا الاعن شعور بضعف العبارة وأنها لاتكاد تفهم بسهولة

وقد جارى احمد بن المنير صاحب الكشاف على جعل شبهة المشركين عين شبهة الجبرة ثم جعل الآيتين مبطلتين لمذهبي المعتزلة والجبرة جميعا فقال في الانتصاف ما نصه: قد تقدم أيضا الكلام على هذه الآية (١) وأوضحنا أن الرد عليهم انما كان لاعتقادهم انهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم وان اشراكهم انما صدر منهم على وجه الاضطرار وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله ورسله بذلك فرد الله قولهم وكذبهم في دعواهم عدم الاختيار لانفسهم وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال فكذب الرسل وأشرك بالله واعتمد على أنه انما

(١) لعل الاصل على مثل هذه الآية

يفعل ذلك كله بمشيئة الله ورام الخام الرسل بهـذه الشبهة، ثم بين الله تعالى انهم لاحج لهم في ذلك وان الحجة البالغة له لا لهم بقوله الآية(١) الحجة البالغة ثم أوضح تعالى ان كل واقع بمشيئته وانه لم يشأ منهم الا ماصدرعنهم وانه لو شاء منهم الهداية لاهتدوا اجمعون بقوله (فلوشاءلهداكم أجمعين) والمقصود من ذلك أن يتمحض وجه الرد عليهم ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد وينصرف الرد الى دعواهم بسلب الاختيار لانفسهم والى اقامتهم الحجة بذلك. واذا تدبرت هذه وجدتها كافية في الرد على من زعم من أهل القبلة ان العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة بل هو مجبور على أفعاله مقهور عليها وهم الفرقة المعروفون بالمجبرة والمصنف يغالط في الحقائق فيسمي أهل السنة مجبرة وان اثبتوا للعبد اختيارا وقدرة لانهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة لافعاله الاختيارية مميزة بينها وبين أفعاله القسرية فمن هذه الجهة سوى بينهم وبين المجبرة ويجعله لقباعاما لاهل السنة(٢) وجماع الرد على المجبرة الذين ميزناهم عن أهل السنة في قوله تعالى (سيقول الذين أشركوا ـ الى قوله ـ قل فلله الحجة البالغة) وتتمة الآية رد صراح على طائفة الاعتزال القائلين بان الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين فلم تقع منا كثرهم، ووجه الرد أن «لو» اذا دخلت على فعل مثبت نفته فيقتضي ذلك ان الله تعالى لما قال «فلوشاء» لم يكن الواقع انه شاء هدايتهم ولوشاءها لوقعت فهذا تصريح ببطلان زعمهم ومحل عقدهم، فاذا ثبت اشتمال الآية على رد عقيدة الطائفتين المذكورتين المجبرة في أولها والمعتزلة في آخرها فاعلم أنها جامعة لعقيدة السنة منطبقة عليها فان أولها كما بينا يثبت للعبد اختيارا وقدرة على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة والعصيان وآخرها يثبت نفوذ مشيئة الله في العبد وان جميع أفعاله على وفق المشيئة الالهية خيرا أوغيره، وذلك عين عقيدتهم، فانهم كما يثبتون للعبد مشيئة وقدرة يسلبون تأثيرهما ويعتقدون ان ثبوتهما قاطع لحجته ملزم له بالطاعة على

(١) كذا في الاصل المطبوع بالمطبعة الاميرية والصواب (قل فلله الحجة البالغة)
(٢) لا يستطيع بن المنير ان ينكر ان كسب الاشعرية واختيارهم لا يخرجهم من فرقة المجبرة ولذلك صرح بعضهم بأنهم منهم وفي مقدمتهم امامهم الرازي وبعضهم انكر اللفظ فقط

وفق اختياره ويثبتون نفوذ مشيئة الله أيضا وقدرته في أفعال عباده فهم كما رأيت تبع للكتاب العزيز يثبتون ما أثبت وينفون ما نفى مؤيدون بالعقل والنقل والله الموفق . اه

ونقول انه قد أجاد الا في زعمه ان مذهب أهل السنة ان قدرة العبد لا تأثير لها فهذا مذهب الاشعرية أو أكثرهم ومذهب أهل الاثر وهم أئمة السنة وبعض محققي الاشاعرة كامام الحرمين ان قدرة العبد مؤثرة في عمله كتأثير سائر الاسباب في المسببات بمشيئة الله الذي ربط بعضها ببعض كما هو ثابت بالحس والوجدان

ثم انه تعالى أمر رسوله (ص) بأن يطالب مشركي قومه باحضار من عساهم يعتمدون عليه من الشهداء في اثبات تحريم الله تعالى عليهم ما ادعوه من المحرمات بعد أن نفى عنهم العلم ، وسجل عليهم اتباع الحزر والخرص ، ليظهر لهم انهم ليسوا على شيء يعتد به من العلم الاستدلالي ولا الشهودي في انفسهم، ولا على شيء من النقل عن ذي علم شهودي فقال له ﴿ قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرم هذا ﴾ اي احضروا شهداءكم الذين يخبرون عن علم شهودي ان الله حرم عليكم هذا الذي زعمتم تحريمه — وهو طلب تعجيز لانه ماثم شهداء يشهدون كالاستفهام عن العلم بذلك قبله، وكقوله من قبل (أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا) فراجع تفسيره ، ولم يقل هاتوا شهداء ليحضروا اي امرئ يقول ما شاء ، فاضافة الشهداء اليهم ووصفهم بما وصفهم يقتضي ان المطلوب منهم احضاره هو جماعة من اهل العلم الذين تتلقى عنهم الامم الاحكام الدينية وغيرها بالادلة الصحيحة التي تجعل النظريات كالمشهودات بالحس أو كالرسل الذين يتلقون الدين من الوحي الالهي وهو أقوى العلوم الضرورية عندهم كانه يقول اذا لم تكونوا انتم على علم تقيمون الحجة على صحته وكان عندكم شهداء تلقيتم عنهم ذلك وهم يقدرون على مالا تقدرون عليه من الشهادة فاحضروهم لنا ، ليدلوا بما عندهم من الحجة التي قلدتموهم لاجلها. ثم قال له ﴿ فان شهدوا فلا تشهد معهم ﴾ اي فان فرض احضار شهداء شهدوا فلا تشهد معهم اي فلا تقبل شهادتهم ولا تسلمها لهم بالسكوت عليها فان السكوت عن الباطل في مثل هذا المقام كالشهادة به بل بين لهم بطلان زعمهم

الذي سموه شهادة - فأمثال هذا الفروض تذكر لاجل التذكير بما يجب ان يترتب عليها ان وجدت كما يزعم أصحاب الاهواء فيها ولذلك قال ﴿ ولا تتبع اهواء الذين كذبوا بآياتنا ﴾ اي ولا تتبع أهواء هؤلاء الناس الذين كذبوا بآياتنا المنزلة وما ارشدت اليه من آياتنا في الانفس والآفاق، فوضع الظاهر موضع الضمير اذ لم يقل: ولا تتبع اهواءهم - لبيان ان المكذب بهذه الآيات والحجج الظاهرة، اصرارا على تقاليده الباطلة، انما يكون صاحب هوى وظن، لا صاحب علم وحجة، ﴿ والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون ﴾ والذين هم على جهلهم واتباع اهوائهم لا يؤمنون بالآخرة فيحملهم الايمان على سماع الحجة اذا ذكروا بها وهم مع ذلك يشركون بربهم فيتخذون له مثلا وعدلا يعادله ويشاركه في جلب الخير والنفع ودفع الضر ولو بحمله على ذلك والتأثير في علمه وارادته.

ومن مباحث اللفظ ان (هلم) اسم بمعنى فعل الامر يستوي فيه عند أهل الحجاز وعالية نجد المذكر والمؤنث والمثنى والجمع ويقول البصريون ان اصله (ها) التي للتنبيه و (لم) التي بمعنى القصد، وفعل يذكر ويؤنث ويثنى ويجمع في لغة بني تميم فيقال هلمي وهلما هلموا

الخيال في الشعر العربي

٦

الغرض من التخييل

عادة النفس الارتياح للامر تشاهده في زي غير الذي تعهده به، والتخييل يأتيها من هذا الطريق فيعرض عليها المعاني في لباس جديد ويجليها في مظهر غير مألوف

فللتخييل فائدة عامة لا تتخلى عنه وهي تحريك نفس السامع لتلقي المعنى بارتياح له واقبال عليه ولو كان من قبيل الحديث المألوف او المعلوم بالبداهة. وانظر ان رمت الثقة بهذا الى قول الشاعر

أخذنا باطراف الاحاديث بيننا وسالت باعناق المطي الاباطح

فالمعنى الذي صيغ البيت لتأديته اننا أخذنا نتناوب الحديث والابل تسير

مسرعة في الاباطح . وهذا كما رأيته معنى مبذول وحديث لا يختص به عابر سبيل دون آخر ولولا ان الشاعر اورده في هذه الصورة التي خيلت اليك بطاحا تتدفق بسيل من اعناق المطايا لم ينل عندك هذا الموقع من الحظوة والاستحسان

قد يكون للمعنى في ذاته وجه يدعو نفس السامع الى النفور عنه ، وصناعة التخييل تبقي له أثرا لذيذا في النفس فتأتيها اللذة من ناحية غير الناحية التي يجيء منها النفور، فلو سمع اشياع ابن بقية قول عمارة اليمني شامتاً به وهو مصلوب

ونكس رأسه لعتاب قلب دعاه الى الغواية والضلال

لوجدوا لهذا البيت في أنفسهم ألما بليغا يدخل عليها من جهة القدح في كرامة رجل امتلأت صدورهم باجلاله، وهذا الالم لا يمنع من ان يبقي للبيت في نفوسهم أثر لذة تسرى اليها من جهة التخييل وان كانوا لها كارهين . ومما قلت في بعض الخاطرات: قد يهذب السياسي حاشية ظلمه فيكون كالبيت البليغ يؤثر في نفس من يهجى به لذة وألما

قد يبدو لك ان هذه الفائدة العامة انما تتحقق فيما اذا كان المعنى معروفا للسامع من قبل التخييل كوصف حال القمر والكواكب والبرق والسحاب والرياض والانهار، والمقلة والثغر والقلم والدواة، او حال الرجل من كرم وشجاعة وعلم وغيرها من الخصال اذ يصح ان يقال ان التخييل قد عرض على السامع هذه المعاني في صور حديثة. واما الوقائع والاحوال المجهولة فلم يعرفوا لها صورة من قبل حتى تعد الصورة الخيالية جديدة وتحدث في النفس لذة زائدة عن لذة العلم بأصل المعنى

والجواب ان المعنى الذي تتلقاه من الشاعر دون ان تسبق لك معرفة به قد يلقيه اليك بوجه صريح ثم يدخل به في الخيال كما هي الطريقة الشائعة في التشبيه والتمثيل ، وعد التخييل في هذا صورة جديدة بالنسبة الى الصورة التي نقشها التصريح أولا مما لا تعتريك فيه شبهة

وقد يلقيه لاول الخطاب في صورة خيالية وهذا مما يصح عده في الصور المستجدة اذ للمعاني صور اصلية وهي التي ترتسم في النفس لاول ما تدرك المعنى بمشاهدة او وجدان فالنفس تشعر حال تلقيها للصورة الخيالية ان للمعنى الذي تحمله اليها صورة أخرى هي الصورة البسيطة التي يعبر عنها بالقول الصريح

ولعلك تقول بعد هذا ان صور المعاني تختلف ما اختلفت العبارات

سواء كانت تصريحيه او تخييلية فالصورة التي يعطيها قولك: زيد يكتب. غير الصورة التي يفصح عنها قولك زيد يخط بالقلم على القرطاس ، وكل منهما صريح لامدخل فيه للخيال واذا كان التخييل يلذ للنفس من جهة انه يكسو المعنى لباساً جديدا فيمكن لنا ان نصوغ للمعنى عبارة صريحة غير التي يعرفها المخاطب فيأخذ بها صورة جديدة، ولا يفوز التخييل بهذه الفائدة ويختص بها دون التصريح

والجواب ان الصور التي تنشأ من العبارات الصريحة وان تفاوتت في مواقع البلاغة واختلفت بالايجاز والاطناب لا تعد كما تعد الصورة الخيالية غريبة عن المعنى المراد، الا ترى انك تعرض المعنى الواحد في صور خيالية متعددة والشعر واحد فيجد السامع عند كل صورة داعية لذة ، ولو القيت المعنى في عبارة صريحة ثم بدا لك ان تخرجه في عبارة أخرى تشاكلها في الصراحة والمخاطب واحد لقيت في نفس المخاطب سآمة لانك لم توافها بصورة غريبة تخيل بها انك تعبر عن معنى غير ما ألقيته عليها أولا

فلا انكر ان الصور في العبارات الصريحة تتفاوت بحسب اختلاف العبارات في كيفية تأليفها ومقدار ما تشتمل عليه من المعاني الزائدة عن اصل المراد وان هذا الاختلاف هو الذي يجعلها متفاضلة في مقامات البلاغة وانما اذهب الى ان تلك الصور وان احكمت نسقتها واضفت اليها من المعاني ما يرتفع به شأنها لا تهيج في نفس السامع هزة الطرب التي تثيرها العبارات الخيالية

فالعبارات الخيالية تشارك العبارات الصريحة في جودة نسجها واشتمالها على المعاني التي ترتقي بها في مدارج البلاغة وتزيد عليها باراءتك المعنى في صورة بديعة تتعشقها النفس وتهتز لوقعها طربا

ثم ان التخييل لايخلو في أكثر احواله من صوغ المعنى في صورة ما تكون معرفة المخاطب له أقوى وفهمه اليه اسرع ، وهذا مما يجعل انس النفس أوفر ، وارتياحها له أكمل

ولا احسبك تقع من هذا الوجه في شبهة او تقف في حيرة حين ترى الوجه السابق يقتضي ان لذة التخييل جاءت من غرابة الصورة وهذا يقتضي ان انبساط النفس لها جاء من جهة ألفها وكثرة التردد عليها فان غرابتها بالنظر الى المعنى المراد لا تنافي ان تكون معرفتها بهيآتها او عناصرها اجلى لدى المخاطب في ذاتها . فالشاعر الذي يقول

كان شعاع الشمس في كل غدوة على ورق الاشجار اول طالع
دنانير في كف الاشل يضمها لقبض فتهوي من فروج الاصابع

قد خيل اليك حال تدفق الاشعة وقت الغداة وتجليها على الاوراق في صبغتها الصفراء في صورة دنانير يضم عليها الاشل يده ليقبض عليها فتنساب من بين أصابعه متساقطة الى الارض . وهذه الصورة بالنظر الى مساق الحديث وهو حال الاشعة غريبة ولكنها في نفسها جلية اذ السامع للبيتين وان لم يشاهد من قبلها دنانير تتناثر من يد الاشل فان المواد المؤلفة منها الصورة كالدنانير ويد المرتعش من أوضح معلوماته

وللتخييل بعد هذا اغراض خاصة يرمي اليها الادباء ويتفاوتون في التمكن منها ولا يسع هذا المقال سوى ان نلم بمهاتها فنقول

قد يقصد الشاعر من التخييل تقوية الداعية الى الاخذ بالشيء حيث يصوره بصورة مالا يستغنى عنه كما قال بشار

فلا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم

ضرب المثل للشورى في تثبيت الرأي واقامته على وجه السداد بالخوافي من الجوانح حيث تساعد القوادم على الطيران ، وهذا التمثيل يلقي في نفس السامع انه محتاج الى الشورى حاجة القوادم الى الخوافي ويؤكد داعيته الى العمل على سنتها او الحث على الثبات والصبر على الامر حيث يخرجه في مثال مالا يمكن بطبيعة هذه الحياة الخلاص منه كما قال بشار أيضاً

اذا كنت في كل الامور معاتبا صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
فعش واحدا او صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا انت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

فالابيات مسوقة في الارشاد الى تحمل مايصدر عن الاخوان من جفاء او هفوة فضرب لهم المثل بالمشارب حيث لا مندوحة للانسان عن ورودها وهي لاتصفو له سائر حياته بل يصادفها في بعض الاحيان كاشفة له عن وجه كالح وماء كدر، يلجئه الظمأ الى الشرب منها، واغضاء الجفن عن اقذائها ، فهذا التمثيل يريك انك لاتستطيع ان تعيش مستقلا عن الاخوان وان ليس في طبيعتهم ان يسيروا في مرضاتك بحيث لاتلاقي منهم طول حياتك الا ما يلائم طبيعتك ويوافق بغيتك، ومقتضى هذا ان تشد يدك بعرى صحبتهم وتغضي عما يعرض

لهم في بعض الاوقات من جفاء او يزلون فيه من عثرات

او التحذير مما يرغب فيه كما قال ابو نواس

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

لو ذهب الى ذم الدنيا صراحة وهي حلوة خضرة لم يأخذه السامع بأخذ التسليم وأنكر ان يكون في لذيذ المذاق جميل المنظر ما يجب الحذر منه، فمدل الى اخراج الذم في مثال يريه كيف يتزيى الشرير بزي الخير ويظهر المؤذي في بهجة ما يعد نافعا،

او تخفيف الرغبة فيه وتقليل الاهتمام به كما قال المعري

وان كان في لبس الفتى شرف له فما السيف الا غمده والحمائل

فمن تمثلت له الملابس بمنزلة الغمد والحمائل من السيف لم يطمح بنظره الى تنميقها او يجهد سعيه في اتخاذها من النسيج الفاخر وانما يصرف همته الى ما تسمو به النفس من علم وفضيلة كما ان البطل لا يعبأ بالغمد والحمائل وانما يقبل على السيف فينفق وسعه في اجادة صنعه وارهاف حده

او التسلية كقول صاحبنا الامير شكيب يسلي البارودي وهو في المنفى

ان يحجبوك فما ضر النجوم دجى ولا زري السيف يوما طي اغماد

لا بأس ان طال نجز السعد موعده فاعذب الماء شربا في فم الصادي

اراد ان ينفث في نفس مراسله كلمة تحل منها عقده الضجر وتطرد عنها غيم الوحشة فذكره بأن ماجرى عليه من التغريب والاخفاء عن أعين من ألفوه وألفهم قد ابتليت بمثله الكواكب فلم يمسها بنقيصة ومنيت به السيوف فلم يضع من قيمتها فتيلا . ورام بعد هذا تخفيف ماعساه ان يساور قلبه من لوعة الحنين الى الوطن، والهم بما طال عليه من الامد، فاتاه له مثالا من حال الماء حيث يكون مذاقه في فم من بعد عهده به — وهو الظمآن — الذ واشهى

ومما صنعت في غرض التسلية

بثثت شعاع علمك في نفوس تسوق اليك ما استطاعت حتوفا

كذا الاقمار تكسو الارض نورا ولولا الارض مالقيت خسوفا

او ازالة مايخالط النفس من النفور عن الامر اوعده عيبا كما قال الفرزدق

تفاريق شيب في الشباب لوامع وما حسن ليل ليس فيه نجوم

ضرب المثل للشعر الاسود تتخلله شعرات من الشيب بحال ليل داج تتألق في سمائه الكواكب ليخيل ان الشيب مما يحدث في الخلقة حسنا ويزيدها بهجة

حتى يضع الانس به مكان التجافي عنه . ومن هذا القبيل قول قابوس

يا ذا الذي بصروف الدهر عيرنا هل عاند الدهر الا من له خطر
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم لاعداد لها وليس يكسف الاالشمس والقمر

او الدلالة على ان الذي تحكى عنه صفة قد بلغ فيها غاية قصوى لتستدعي له في نفس المخاطب اجلالا واشفاقا او تحقيرا له او جفاء عنه ، ويرجع الى هذا الغرض كثير من التخييلات الواردة على طريق المبالغة في المديح والفخر والاعتذار والهجاء والوشاية وامثلتها كثيرة الدوران في كتب الادب والبيان

وقد يكون المعنى مما لم تتداوله الافكار وليس من البعيد ان يلاقيه المخاطب بالتعجب الذي هو مطية الانكار ، فيجيء التخييل عقب هذا لازالة التعجب منه وبيان ان وقوعه داخل في حوزة الامكان وهذا كما يقول أبو تمام الاندلسي

لايفخر السيف والاقلام في يده قد صار قطع سيوف الهند للقصب
فان يكن أصلها لم يقو قوتها فان في الخمر معنى ليس في العنب

ادعى في البيت الاول ان القطع الذي عهدت به السيوف قد انتقل الى الاقلام التي تهزها يد ممدوحه فلم يبق للسيوف خصلة تفاخر بها ، وليست هذه الدعوى من الجلاء بحيث تفتح لها النفوس باب القبول بسرعة واول مايطمن فيها ان الاقلام مشتقة من القصب وهي اوهن من المصادع السيف ومضاءه فاحتاج الى تأييدها بما يدفع الشبهة ويحشرها في زمرة الاقوال المسلمة فضرب لها المثل في البيت الثاني بالخمر التي هي عصارة العنب وقد امتازت عن بقية المصير باطفاء نور العقل واطلاق اللسان يخبط في فلاة الهذر خبط عشواء فصارت بهذه الخاصية حقيقة قائمة بنفسها ومالكة لقوة لم تكن في جنسها

وقد يكون المعنى مما تألفه العقول ولا يتشبث به في سياقه مايجر السامع الى ارتياب اويحمله على انكار وانما يقصد الشاعر الى ايراده في مثال اوضح حتى يقع من نفوس السامعين في قرار مكين ومثال هذا قول سيف الدين بن المشد

ان ترق الى المعالي أولو الفضـ ـل وساخت تحت الثرى السفهاء
فحباب المدام يعلو على الكا س محلا وترسب الاقذاء

بارتفاع الفضلاء الى المراتب العاليـة وهبوط أهل السفه الى ماتحت الثرى

ليس في نفسه بأمر يتعجب منه او يتلقى بانكار فحاكاته بارتفاع الحباب على وجه الكاس ونزول الاقذاء الى اسفله انما كانت مؤكدة له ومفصحة عن مناسبته للحكمة وانطباقه على سنة الله الجارية بارتفاع العناصر النقية ورسوب الاجرام المتعفنة . ومما صغت على هذا النمط

لا يألف العزّ شعبا لج في وسن من الخلاعة لا مسعى ولا أملا
كالدر يزهو على صدر الفتاة وان دب النعاس الى اجفانها اعتزلا

ومن الدواعي الى التخييل تخصيص بعض السامعين او القارئين بفهم المعنى اما لفضل ألمعيته او لان في يده من القرائن المساعدة له على الفهم ما ليس في يد غيره فلو حاورك انسان في أمة من الناس اقاموا على فريق من أموالهم رقباء فأردت ان تذكر له ان أولئك الرقباء لم يحرسوها بعين الامانة حتى تناولها قوم ملأوا منها حقائبهم ونثروها في سبيل شهواتهم فكتبت اليه على مثال ما كنت قلت

يارياضا خانها الحراس اذ غرقت احداقهم في وسن
سرقت ريح الصبا منك شذى طاب وانسابت به في الدمن

لم يستطع فهم ما أردت من الكلام الا من دارت بينك وبينه تلك المحاورة

وقد يذهب الشاعر الى التخييل لقصد التهكم كما قال المعري يتهكم بمن يحكي ان أول من شاب ابراهيم عليه السلام

ما اقبح المين قلتم لم يشب أحد حتى أتى الشيب ابراهيم عن أمم
كذبتم ونجوم الليل شاهـدة ان المشيب قديما حل في الامم

فكأنه يقول هذه الرواية الملفقة ليست اهلا لان تقابل بغير هذا الرد القائم على الخيال . ويقرب من تخييل نجوم الليل بالمشيب قول احمد بن دراج القسطلي يصف المجرة

وقد خيلت طرق المجرة انها على مفرق الليل البهيم قتير

وربما لا يجد الشاعر داعيا الى مسلك التخييل بمد بسط النفس سوى التنبيه على ما بين المعاني من المناسبات الخفية او مجاراة البلغاء واقامة الشاهد على الحذق في هذه الصناعة ، ومما يرمي الى أحد هذين الغرضين ما يتعلق به الادباء في وصف بعض المناظر الفطرية كالكواكب والحدائق او الصناعية كالشمعة والسفينة

محمد الخضر

الطور الجديد للمسألة المصرية

بدأنا مرة بعد أخرى بكتابة مقال مفصل في المسألة المصرية ثم كنا نترك نشره لسبق الجرائد اليومية ايانا الى نشر مقالات كثيرة في معنى ما كتبنا ما غادرت متردما، بل جاؤا بالذرة، وأذن الجرة -كما قيل في المثل- فان كان أكثر ما كتب لم يخل من تحرّف لجدل او تحيز الى فئة فذلك أحرى باستقصاء أصول المسألة وفروعها — فنكتفي اذا باستخلاص الزبد من المخيض واستنباط النتيجة من المقدمات ، بكلمات وجيزة تحز في المفصل،وتعطى قارئها من الموعظة والاعتبار والحكم ما لعله لايجده كله في غيرها

مقدمة وتمهيد

(١) قد سبق الذكاء الفرنسي الدهاء الانكليزي الى معرفة مكانة مصر من ارتباط الشرق بالغرب وما فيها من ينابيع الثروة فمد اليها حسامه نابليون الاول نابغة عصره في الذكاء والاقدام، ولكن الدهاء الانكليزي قطع ذلك الساعد الذي مد الحسام، ثم اعانت العلوم والفنون الفرنسية محمد علي الكبير على تكوين دولة جديدة عربية ، فعارضتها انكلترة بنفوذ الدولة التركية ، حتى وقفت مدها ، وأرجعتها الى ما وراء حدها، ثم تعاون الدولتان على ارهاق مصر في زمن اسماعيل ، ثم سبقت ادهاها الى احتلالها في عهد توفيق

(٢) كانت نهضة مصر في عهد محمد علي مادية محضة الحاكم الاعلى لها شارع ومنفذ ومالك متصرف في البلاد وأهلها تصرف السيد المالك بماله وعبيده، وما كان يرجى ان تتكون في ظل هذا الحكم بهذا العصر أمة، ولا ان تعتز دولة ، بل يهدم مستبد مفسد ، ما بناه مستبد مصلح، كما هدم اسماعيل المبذر، ما أسسه محمد علي المعمر. حدثني المرحوم حسن عبد الرازق باشا ان قيمة اطيان القطر المصري كلها ما كانت تزيد في آخر مدة اسماعيل عما كان عليه وعلى البلاد من الدين للاجانب

(٣) ان غايات الاضداد تتصل مباديها ففي عهد اسماعيل الذي انتهى اليه الاستبداد في محق ثروة البلاد وافساد الاخلاق — زرع ونبت غرس الاصلاح الاجتماعي والسياسي والادبي بارشاد حكيم الشرق وموقظه السيد جمال الدين

الافغاني مؤسس الحزب الوطني الاول في مصر ومعلم الكتابة والخطابة والسياسة والفلسفة ، ولكن بريطانية العظمى كانت بالمرصاد لهذا الاصلاح المعنوي، فناوأته كما ناوأت ذلك الاصلاح المادي ، فأغرت توفيق باشا بنفي السيد جمال الدين من البلاد بعد ان كان قد عاهده — وهو ولي العهد — على العمل بما اقترحه من الاصلاح ، ومنه جعل حكومة البلاد نيابية وتعميم التعليم وغير ذلك ، ولكنه قال عند خروجه من مصر انه ترك فيها من يتم ما بدأ وهو مريده الذي احاط بمبادئه ومقاصده الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

(٤) تجدد في البلاد عهد الاصلاح المادي والمعنوي معا في اول امارة توفيق اذ تولى الوزارة مصطفى رياض باشا ذو الفطرة الطاهرة والوطنية الصادقة التي لم تر مصر في تاريخها الحديث وزيرا يدانيه في مجموع اخلاقه وفضائله واستقلاله وعدله واصلاحه الاداري وان وجد فيها من الوزراء وغيرهم ألوف فاقوه في العلوم القانونية بأنواعها مع المشاركة في بعض الفنون التي لم يكن يعرفها — فقام هو باصلاح المالية والادارة خير قيام . وولى الشيخ محمد عبده ادارة المطبوعات ورئاسة تحرير الجريدة الرسمية فتوسل الشيخ بهذا الى اصلاح لغة الصحف والدواوين ثم الى اصلاح التعليم الرسمي وغير الرسمي كما فصلناه في ترجمته وترجمة رياض باشا ولكن كان من سوء حظ مصر ان وقف سير هذا الاصلاح بالثورة العرابية المشؤومة بانتهائها بالاحتلال الاجنبي قاتل الامم ومفسد الشعوب ومذل البشر

(٥) توسل الانكليز الى الاحتلال بطلب أمير البلاد توفيق واستدراج السلطان صاحب السيادة عليها واستخدام اسمه ونفوذه ، وخداع اوربة بايهامها انهم يقصدون حماية رعاياها وحفظ أموالها ومصالحها ، وطمأنوا هؤلاء وأولئك بأن الاحتلال موقت لاتقصد بريطانية العظمى فيه لنفسها نفعا ، ولا تنوي سيادة ولا أثرة، وانما تنوي خدمة مصر واوربة والانسانية ، وياطالماخدعوا البشر بمثل هذا الايهام ، ولم تعرف عامة أمم الارض رياءهم وخداعهم الا في هذه الايام ، ثم طفقوا يمكنون نفوذهم بالتدريج ، ويسيطرون على الادارة والقضاء والتعليم ، ويفسدون اخلاق العامة بالاباحة التي يسمونها الحرية الشخصية ، واخلاق الخاصة بخدمة الحكومة ذات الرواتب العظيمة ، ويمنون على الشعب أنهم المنقذون له من ظلم الترك واعوانهم ، والممدون له للاستقلال الذاتي

حتى اذا ما استعد له تركوا له بلاده ، نعم انهم ساعدوا ما كانت البلاد متوجهة اليه من اصلاح الري وترقية الزراعة لتكون البلاد ينبوع ثروة لهم ، ولكنهم ندموا أخيرا انهم لم يحولوا دون تحصيل بعض الاهالي للثروة الواسعة في بلادهم كما يعلم مما يأتي

(٦) ظل الانكليز يمهدون السبل لضم مصر الى مستعمراتهم مدة ثلث قرن وينتظرون الفرص كدأبهم، حتى اذا ما اشتعلت نار حرب المدنية المادية الملعونة وآذنوا الدولة العثمانية بالحرب ، انتحلوا لانفسهم ما كان لها من السيادة على مصر ، واعلنوا حمايتهم عليها، وأطلقوا أيديهم في رجالها، وأموالها وغلالها، وحميرها وجمالها ، بل تصرفوا في كل شيء للحكومة وللامة واستخدموه في حرب الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية على البلاد التي لم تكن تستخدم في سيادتها أحدا في نفسه ولا تصادره في شيء من ماله ، حتى ان الحملة التي وجهت الى فتح فلسطين في آخر حرب صليبية — كما وصفها رئيس الوزارة البريطانية (لويدجورج) — قد سموها الحملة المصرية ، وقد كانت هذه التسمية حقا وان قصد بها معنى آخر خفي — وهو الاخذ بثأر قلب الاسد وسائر الصليبيين الذين كسرهم مسلمو مصر وغيرها بقيادة صلاح الدين (قدس الله روحه) وانتزاع البلاد المقدسة من المسلمين بحملة مصرية جل العاملين فيها من شبان مسلمي مصر وجل المال الذي انفق فيها على السكك الحديدية وغيرها من مال مسلمي مصر.— كما أنه تم بمساعدة أشهر الامراء المنسوبين الى نبي الاسلام، عليه وآله من دونهم الصلاة والسلام ، ولو قصدوا بالتسمية معناها الحق ، لما صح ان يجازوا المصريين عليها بارق ، بل لوجب ان يشركوهم بهذا الفتح ويجعلوا لهم حظا من حكم البلاد التي فتحوها كما جعلوا لانفسهم مثل هذا الحظ بل أكبر منه في حكم السودان بحجة انهم شاركوا مصر في فتحها الثاني له بعد اجبارها على تركها اياه ــ وان كان خصوا أنفسهم في هذه الشركة بالغنم، وحملوا المصريين فيها الغرم، كما بيناه في مقالة خاصة على أثر الاتفاق على هذه الشركة بينهم وبين بطرس باشا غالي الذي لا يملك من أمر السودان شيئا ، وذلك بعد أن امتنع مصطفى باشا فهمي رئيس النظار عليهم ان يجعل ذلك الاتفاق بقرار من مجلس النظار محتجا بأن هذا حق الدولة العثمانية صاحبة السيادة على البلاد وحدها ، وكان هذا الامتناع أكبر منقبة لمصطفى باشا فهمي تدل على شرفه

ونزاهته واستقلاله ، على ما كان من ضعف ارادته معهم واستسلامه

الحماية البريطانية والوزارة الرشدية

(٧) أعلنت بريطانية العظمى الحماية على مصر بالاتفاق والمواطأة مع وزارة رشدي باشا التي كان عدلي باشا أحد أركانها. وهذه الوزارة هي التي مكنت للانكليز في البلاد، ومكنتهم من استخدام كل ما تملك الحكومة والأمة من الاعيان والمنافع والاناسي والدواب والانعام، ولولاها لما استطاع الانكليز ان يستخدموا زهاء ألفي ألف شاب مصري وينتفعوا بما يقدر بألوف الالوف الكثيرة من الجنيهات، وقد نقل عنها أنها لم تفعل ذلك الا عن موعدة وعدوها اياها وهي منح البلاد الاستقلال الاداري بعد انتهاء الحرب، وما كان رجالها اول من خدعته الوعود البريطانية فنقول انهم لا يفقهون السياسة وأخاديعها — ولما انتهت الحرب وزال الخطر عن بريطانية العظمى واحلافها، وشعرت بأن أزمة سياسة العالم صارت في قبضة يديها، قلبت لمصر ظهر المجن وشرعت تمهد السبيل لضمها الى املاكها، والاجهاز على لغتها العربية التي طالت محاربتهم لها واستبدال اللغة الانكليزية بها، وجعل السلطان الغالب في هيئتي حكومتها التشريعية والتنفيذية للانكليز وغيرهم من الاوروبيين، والقبض على ناصية الثروة والمواصلات التي هي شرايين الحياة الادارية والمالية في الامة — وقد ظهرت مبادئ هذه المقاصد في عمل اللجنة التي ألفت لوضع نظام لالغاء الامتيازات الاجنبية وحصر النفوذ الاجنبي في البريطانيين وقد كان عدلي باشا عضوا فيها. فلما رأت ذلك وزارة رشدي ظهر لها ان هلاك مصر بالاستعباد للانكليز واقع على يديها. فكبر عليها الامر، وسدت في وجهها منافذ الحيل، حتى ظهرت مبادئ النهضة الوطنية الجديدة على يد سعد باشا زغلول ورجاله

تأليف سعد الوفد ومساعدة رشدي وعدلي

(٨) ان خبر تأليف سعد باشا للجنة وطنية تسمى لاستقلال مصر باسم الوفد المصري معروف، ومشايعة وزارة رشدي باشا له غير مجهولة، وقد كانت قيمة مساعدتها حتى السلبية ثمينة، وأعني بالسلبية عدم مقاومته عند أخذ وثائق التوكيل من ممثلي الامة للوفد بطلب الاستقلال التام ، وقد حاول مستشار الداخلية الانكليزي منع هذه الوثائق فلما لم يستطع استخدام الوزارة فيه كان عمله أبتر ناقصا فكان هذا من اظهر الشواهد على عجز الانكليز عن

التصرف في الامة بأنفسهم، فهم لم يعملوا شيئاً ضارا ولا نافعا الا بأيدي المصريين . ولم تكن مساعدة الوزارة لسعد باشا عن تواطؤ وتعاهد على السعي معه الى الاستقلال التام الذي التزمه اذ لم تكن ترجوهذا وانما رأت ان قيامه بهذا الامر يكون وسيلة لها الى أحد الامرين اما الحصول على استقلال اداري واسع مع الارتباط بالامبراطورية بالحماية أو السيادة على ما كانت وعدت به عند اعلان الحماية ـ واما اثبات وطنية افرادها لتعلم الامة أن موافقتها للدولة البريطانية على اعلان الحماية ومساعدتها اياها على استخدام قوى الحكومة والامة في الحرب كان عن اجتهاد في خدمة البلاد يغفر لها خطأها فيه حسن النية والتكفير عنه بمساعدة الامة على طلب الاستقلال

الاستعداد للاستقلال وأسبابه

(٩) ان استعداد الامم للانقلابات الاجتماعية التي يظهر بها انتقالها من طور الى طور انما يتم بأعمال شتى في أزمنة مختلفة تكون كالمقدمات للنتيجة فلا يعلم عند النظر في كل منها منفردا ماسيفضي اليه او ماسيترتب عليه عند اتصاله بغيره على وجه مخصوص ، وان رجال الاستعمار من الافرنج يراقبون الشعوب التي يسودونها ليحولوا بينها وبين الاعمال التي تجتمع بها كلمتها فتكون أمة مستقلة بالاستعداد بالقوة، الذي لابدان يتبعه الاستقلال بالفعل ، فيصرفونها عن هذه الاعمال ويشغلونها بضدها بقدر علمهم واجتهادهم ،وقد يخونهم العلم فيعملون بأنفسهم لاعداد الامة للاستقلال مالاتستطيع عمله اومالا يأتي منهاوهم لايشعرون ، فلم يكن لورد كرومر (وقد كان اوسع انكليز مصر علما وخبرا وحزما) يعلم بأن اباحته للمصريين حرية الانتقاد على حكومتهم وأعظم رجالها سيكون سببا من أسباب جمع كلمتها اذ كانت الحكومات هي السالبة لاستعداد الشعب بمصر والحائلة دون جمله أمة ـ وانما كان منتهى اجتهاده في ذلك ان سقوط هيبة الحكومة الوطنية وزوال سلطانها يجعل المصريين خاضعين للانكليز خانعين لهيبتهم وحدهم، وهم الذين لايطمع أحد في اضعاف سلطانهم ـ ولم تكن السلطة العسكرية البريطانية تعلم ان ذلك التصرف في أموال الفلاحين وسائر الطبقات الواطئة وفي أنفسهم يولد عندهم من العلم بضرر السلطة الاجنبية والشعور بكراهتها وعداوتها ما تشارك به أعلى الطبقات علما وأشدهم شعورا فتجعل الامة كتلة واحدة وكلمة واحدة ـ بل أقول ان الحكومة البريطانية

العليا في لندن كانت تجهل ماتلده لها الدعوة (البوربغندة) التي نشرتها في العالم كله طول سني الحرب لاقناع الامم كلها بأنها مع حلفائها يقاتلون لتحرير الامم والشعوب وازالة ما يريده الالمان وحلفاؤهم من جعل السلطان للقوة دون الحق ـ وهو توجه أنفس الشعوب المستعمرة او المستعبدة بالاسماء المختلفة الى الحرية والاستقلال وبغض المستعبد واحتقاره والخروج عليه مهما تكن النسبة بعيدة بين قوته وضعفها ـ كما كانت تجهل بالاولى ان تمني سعد باشا زغلول ورفاقه من مصر عند اظهارهم الاستعداد لطلب الاستقلال يولد في مصر ثورة اجتماعية عامة . كيف وقدسمعت هذه الحكومة ممن كانت تعده أعلم رجالها بحال المصريين ـ وهو مستشار الداخلية السابق ـ قوله : اذا اشتعلت نار ثورة في مصر فهو يطفئها ببصقة من فمه !

الوحدة المصرية وما حدث من صدعها

(١٠) ظهرت مبادئ استعداد الوحدة المصرية للاستقلال ونبذ السلطة الانكليزية بعد وقوع اسبابه التي أشرنا الى بعضها في زهاء ثلث قرن فكانت كلما قاومها الانكليز تزداد قوة لانها حقيقية لا صورية مدبرة كما ظنوا بادئ ذي بدء ، ولو علموا انها حقيقية لعالجوها باللين والخدعة ، لا بالشدة والصراحة ، ولكن هذه الوحدة لم تعش أكثر من عامين حتى فت في عضدها التفرق والانقسام ، ومن العجيب أن أعظم مظاهر الاعتصام والوحدة ، قدكان هو نفسه أعظم مظاهر الانفصام والفرقة ، الا وهو الوفد المصري الذي اجمعت الامة على الثقة به وجعلت في تصرفه مئات الالوف من الجنيهات، لقد جنى الوفد على نفسه بما جنى على الامة فخابت فيه الآمال، وغلب يأس الجمهور على الرجاء، وآخرون متحيرون يقولون ماعدا مما بدا ؟ وهل لمصر من موسى يأتيها بخبر او يجد على هذه النار هدى؟ وقد يعجبون لقول مثلي بعد هذا التفرق الذي اشرب العداء، ولم يسلم من الهجر والبذاء، على أكابر الزعماء والرؤساء: ان الوحدة المصرية حقيقية، ولم تكن خدعة صورية ، نعم انني قلت ماقلت على علم ، وانني اثبت رأيي بالدليل :

لا تتمحص الحقـائق الا بدخولهـا في جميع الاطوار التي من شأنها التطور بها فما ظهر من التفرق والانقسام في الوحدة المصرية التي أكبرها العالم مدة سنتين يشبه ما كان من اكبار العالم للانقلاب العثماني الذي هتفت له الشعوب العثمانية على اختلاف مللها ونحلها ، ولغاتها وتربيتها ،وتعانقت وتآخت

لاجل تنفيذ قانونه ، ثم لم تلبث جمعية الاتحاد والترقي التي احدثته ان هدمته بيدها ، وكذلك هدم الوفد المصري ما حدث على يديه من الوحدة المصرية واجتماع الكلمة عند نفي رئيسه وثلاثة من أعضائه المؤسسين الى مالطة ـ ثم عند اطلاقهم من اعتقالهم ـ ثم في مقاطعة لجنة لورد ملنر واجماع الامة على ردها الى الوفد المصري ـ ثم في استقبال لجنة الوفد التي جاءت لاستشارة الامة في تقرير لورد ملنر ـ ثم في استقبال الرئيس سعد باشا زغلول بحفاوة عامة اشترك فيها القطر المصري من أدناه الى أقصاه باحتفالات وزينات وخطب وقصائد ومآدب لم يسبق لها نظير . ولم يبق أحد يجهل ان اتحاد الامم هو أعظم قوة لها تتبعها سائر القوى اذا ثبتت ، وينتكث فتل كل ما يوجد منها اذا نكثت ، فما سبب هذا التفرق بعد ظهور ثمرة الاجتماع بجنوح بريطانية العظمى الى استمالة مصر وارضائها برفع الحماية عنها والاعتراف بالاستقلال لها ، مقيدا ذلك بقيود تحفظ بها مصالحها ؟

موضوع الاتفاق وسبب الافتراق

(١١) ان ما كان من الوحدة والاتفاق كان على أمر مجمل توجه اليه استمداد جميع طبقات الشعب وهذا التفرق لم يزده الا قوة ولكن الشعب (لما اتفق على طلب الاستقلال التام كان أهل الرأي منه يعلمون أن الكمال يقصد في أول السعي وقلما ينال الا في آخره ، وان المسافة بين الاول والآخر في اعمال الامم قد تكون قريبة تحسب بالسنين وقد تكون بطيئة تعد بالاحقاب، ومنهم من كان يرى مع هذا أن كل مايؤخذ من الغاصب فهو ربح ، ومن يرى ان أخذ بعض المغصوب قد يتضمن الاعتراف للغاصب بالبعض الآخر فالواجب الانتظار لاخذ الحق كله ولو بعد حين ـ فكان هذا خلافا يداخل الاتفاق وان لم يذكر في الوقت الذي لم يظهر من الغاصب فيه جنوح ما الى الاعتراف بشيء من الحق لصاحبه ، دع الوعد ببذله كله او بعضه ، فلما أثمر سعي الوفد بقوة وحدة الامة التي تؤيده جنح الانكليز لارضاء المصريين بالاعتراف لهم بحقهم في ادارة بلادهم واستقلالهم فيها (بشرط اعترافهم هم لبريطانية العظمى بمركز ممتاز في البلاد تحفظ به مصالحها ومنافع اوربة بما اكتسبته من الاهلية لهذا الامتياز بالاحتلال الطويل الذي خدمت البلاد فيه ورقت موارد الثروة فيها وغير ذلك مما تدعيه سواء كان مسلما أم لا) ودعي الوفد المصري من باريس

الى لندن لاجل المفاوضة في التقرير الذي وضعه لورد ملنر وزير المستعمرات البريطانية لحل، اشكال القضية المصرية - لما كان ذلك - ظهر في المسرح عدلي باشا يكن أحد أركان الوزارة الرشدية التي استقالت في سبيل تأييد الوفد فكان وسيطا بين الوفد ولجنة ملنر التي فوضت الحكومة البريطانية اليها أمر المفاوضة وسبرغور الوفد - وظهرت بتلك الوساطة مبادي الخلاف الكامن الذي أشرنا اليه ،وانتهى بالتفرق والشقاق الذي نفكو منه ، فما ثم شيء جديد، الاوله أصل تليد، كان يتخلل بذور الاستقلال المطلق بذور الاستقلال المقيد بقيد الامبراطورية فنبت ذاك اولا في مصر ونبت هذه بعده في أوربة ثم في مصر، فكان كالزؤان بين القمح

لقد فتن الجمهور المصري تبعا لوفده بمشروع ملنر وبعد طول البحث فيه والتمحيص له استقر رأي سعد باشا على أنه «حماية مقنعة» الفرض منه جعل مركز الغاصب المبطل شرعيا بقبول الامة المصرية هذه الحماية المقنعة - ورأى عدلي باشا أنه مشروع جدير بأن يبني عليه الاتفاق بين انكلترة ومصر وانه يمكن تعديل بعض ما يشتد سعد باشا في انكاره منه - وكان سعد باشا يرى عدم المفاوضة في هذا المشروع - ثم رأى بعد مفاوضة لجنة ملنر التي استدرج اليها انه لايجوز جعله أصلا للاتفاق بين مصر وانكلترة ولا أساسا للمفاوضات الرسمية الا اذا ألغيت الحماية وقبلت التحفظات التي وضعها الوفد بعد مشاورة الامة والاطلاع على رأيها . واشتد النزاع بينه وبين ملنر مرارا حتى هم بقطع المفاوضات وكان عدلي باشا يعيد المياه الى مجاريها بلطفه وكياسته فأرضى بذلك الانكليز وعلقوا آمالهم به وأغضب سعد باشا ، وسعد شديد الشكيمة حديد المزاج اذا غضب جرح فأدمى،وعدلي باشا رقيق الطبع من أبعد الناس عن النضال والخصام،ولكن مال اليه بعض اعضاء الوفد وآثروه على رئيسهم في شخصه وفي طريقته ،فاجتهدوا أولا في التأليف بينهما ، ولولا ذلك لظهر ما نجم من الشقاق بينهما في أوربة . على ان سعد باشا انبأ لجنة الوفد بمصر ببرقية من باريس بأن عدلي باشا مشاق للوفد فلم تنشر تلك اللجنة وتدارك ذلك الاعضاء هنالك فاصلحوا بينهما اصلاحا التزم فيه عدلي بألا يعمل عملا الا بالاتفاق مع الوفد ، وحمل سعدا على كتابة برقية تنسخ البرقية الاولى فنشرت هذه دون تلك . ويقال انهم أقنعوا سعدا بأن يؤلف عدلي وزارة تتولى المفاوضة

مع انكلترة ويكون الوفد بالمرصاد لما يقرره الفريقان فان كان مرضيا أيده والا استأنف جهاده وسعيه .

ثم ظهر الخلاف بين سعد والمشايعين لعدلي من أعضاء وفده فغادره خمسة منهم وعادوا الى مصر فسبقهم اليها نبأ منه بمخالفتهم له فاستقبلهم جند الوطنية من الشبان اسوأ استقبال منذ بلغوا مرفأ الاسكندرية الى أن آووا الى بيوتهم واسمعوهم اذى كثيرا مشوبا بالوعيد والنذر ، وأخذوا منهم كتابا بأنهم على رأي الرئيس ومعه ، ولكن لم يمنعهم ذلك من بث الدعوة لعدلي باشا والطعن في سعد باشا والتنفير والصد عنه وكان منهم الغالي والمعتدل في ذلك

الوزارة العدلية

(١٢) من القضايا التي صارت معروفة للجمهور ومسلمة بين الخصوم أنه لما كان الوفد المصري وعدلي باشا في لندن تقرر لدى الحكومة البريطانية ان يؤلف عدلي باشا بعد عودته الى مصر وزارة تتولى المفاوضة الرسمية وعقد الاتفاق بين بريطانية العظمى ومصر على أساس تقرير ملنر بشرط الغاء الحماية فقط ، والشائع ان أعضاء الوفد الذين تحولوا ثمة عن سعد الى مشايعة عدلي قد تواطؤا معه هنالك على تأييد الوفد له اما بجذب سعد اليهم واما بنبذه بأكثر الآراء ، ولولا هذا التواطؤ لم يقبل عدلي باشا ان يدخل في هذه المعمعة وينقض عهده فانه رجل شديد الاحتياط في حفظ كرامته وشرفه واتقاء القيل والقال ، دع الاستهداف للطعن والنضال ، وانهم حاولوا هذا هنا فلما لم يستطيعوا اليه سبيلا تحيزوا الى عدلي جهارا ، واننا نلخص خبر الوزارة بموجز من القول

سبق ان ذكرنا في المنار الصفة الرسمية لتأليف الوزارة وانها كانت بسبب البلاغ البريطاني لعظمة السلطان في شأن المفاوضة باستبدال علاقة أخرى بالحماية البريطانية على مصر تربطها بالامبراطورية وقد اشتهر ان السلطان كان يرغب ان تتولى وزارة محمد توفيق باشا نسيم ذلك لانها كانت احظى الوزارات عنده ولما استقالت لاجل هذا العمل عهد الى محمد مظلوم باشا بتأليف الوزارة المطلوبة فلم يمكن ، ويقال انه ذكر غيره ثم علم أنه لا يمكن ان يقوم بهذا الامر الا عدلي باشا

ولما ألف عدلي باشا الوزارة ذكر في جوابه عن الامر السلطاني بتأليفها خطتها السياسية الناطقة انها « ستجعل نصب عينيها في المهمة السياسية التي

ستقوم بها لتحديد العلاقات الجديدة بين بريطانية العظمى وبين مصر الوصول الى اتفاق لايجعل محلا للشك في استقلال مصر . وستجري في هذه المهمة متشبعة بما تتوق اليه البلاد ومسترشدة بما رسمته ارادة الامة وستدعو الوفد المصري الذي برأسه سعد باشا زغلول الى الاشتراك في العمل لتحقيق هذا الغرض»

وقع هذا القول على ابهام عبارته واضطرابها (١) أحسن موقع من الامة فان آمالها كانت محصورة في الوفد الذي ينطق باسمها فرأت أنه قد وجدت في البلاد حكومة تؤيد الوفد وتعمل معه فأصبحت الامة والحكومة كلمة واحدة ويدا واحدة بعد ان كانت الحكومة خصما للامة منذ تمكن الاحتلال الانكليزي وأنشب براثنه فيها الى هذا العهد، لاجل هذا صفقت الامة لهذه الوزارة وقابلتها بمظاهرات الثقة بها والهتاف لها مع الهتاف للوفد ولرئيسه سعد باشا

التفرق والشقاق بين المصريين

(١٣) ثم ان الوزارة آذنت سعد باشا - وهو في باريس - بتأليفها وخطتها وطلبت منه الحضور الى مصر للتعاون معها على العمل فبادر فقابلته الامة من أعلى طبقاتها الى أدناها في جميع البلاد من أدناها الى أقصاها ، بمظاهر من الحفاوة والتكريم ، لم يسبق لها شبه ولا نظير ، فكانت الامة كالمجمعة على ما قامت به جميع هيئاتها النظامية المنتخبة وسائر ممثليها من تكريمه واعلان الثقة به في المحافل العامة والمآدب الخاصة ، ولكن هذا الاجماع لم يكن تاما عاما سالما من الشذوذ الخفي بل كان بعض أعضاء الوفد الذين خرجوا من أوربة مغاضبين وبعض الحاسدين الذين زادهم ماراًوا حسدا يخفون في أنفسهم مالا يبدون للناس فلما تعذر التوفيق بين الوفد والوزارة أو بين رئيسيهما ظهر ما كان خفيا وصار أعضاء الوفد المغاضبون لرئيسهم يتسللون من (بيت الامة) (٢) لواذا ، وينفضون الى الوزارة ثبات وافرادا ، ثم استمالوا هم والوزارة اليهم آخرين منهم ، وحمي

(١) ان نفي ايجاد محل للشك في الاستقلال في الاتفاق لايقتضي ان يكون اتفاقا على الاستقلال التام المطلوب فانه تفي بينه وبين إستقلال مبهم ثلاث مراتب - الجهل والمحل والشك - فاذا كان الاتفاق على ان تكون مصر كبعض امارات الهند أو الجزائر التي تسمى مستعمرات مستقلة فانه يصدق عليه ماذكر. والاسترشاد بما رسمته ارادة الامة لايقتضي اتباع ارادتها وعدم تجاوزه

(٢) بيت الامة لقب وضع لدار سعد باشا زغلول

وطيس الخلاف والجدل ؛ وصرح رئيس الوفد بعدم الثقة بتولي الوزارة للمفاوضة مع الحكومة الانكليزية والاتفاق معها على مستقبل مصر، فعارضته الوزارة وقاومته بكل مالدى الحكومة من حول وقوة ؛ تظاهرها في ذلك السلطة المحتلة، ومن ورائها الامة البريطانية بحكومتها وجرائدها، ويالها من قوى هائلة تستغيث من هولها الامم ، وتخشى صولتها كبرى الدول ، فظهر بذلك صدق ماقيل من انه قد تقرر في انكلترة ان يتولى عدلي باشا الوزارة ويؤيده الوفد ثم يكون هو الذي يعقد الاتفاق بين بريطانية العظمى ومصر على قواعد تقرير ملنر بشرط الغاء الحماية واستبدال علاقة بريطانية أخرى بها

فوقع بذلك الشقاق في الامة ؛ وانشقت عصا تلك الوحدة التي ليس لمصر من دونها حول ولا قوة ؛ فكان هذا أول طلائع الظفر البريطاني الذي يغالب جميع الخطوب بالصبر والجلد ، مع الدأب في العمل

وقل من جد في أمر يحاوله واستعمل الصبر الا فاز بالظفر

ففيم كان هذا الشقاق الذي شوه تلك السمعة الشريفة التي نالتها مصر في العالم كله بوحدتها واتفاق كلمتها مدة عامين ؟ هل هو شقاق في المذهب السياسي ام تنازع على الزعامة والرياسة بين الافراد وانتصار كل فريق لزعيم لتفضيله اياه في الزعامة للمصلحة العامة او المنفعة الخاصة؟ ومن المذنب المسؤول؟ وأي الحزبين هو الظافر وأيهم المغبون؟

موضوع الشقاق وزعماؤه

(١٤) من القضايا التي صارت معروفة لكل أحد ان وحدة الامة المصرية التي كان يمثلها سعد باشا زغلول رئيس الوفد المصري قد انصدعت فصارت الامة في طريق السعي الى استقلالها فريقين — وأن زعيم الفريق الاكبر او الاكثر هو سعد باشا ويعبر عن افراد حزبه بالسعديين، وان زعيم الفريق الاصغر أو الاقل هو عدلي باشا ويعبر عن أفراد حزبه بالعدليين، وان كل قوة سعد مستمدة من الامة، وان جل قوة عدلي مستمدة من الحكومة المصرية التي هو رئيسها والسلطة البريطانية الموجدة لهذه الحكومة — وان هذا الصدع قد كان من قبل الزعماء الذين أسسوا بناء الوحدة بما كان من استعداد الامة له وهم زعماء هذه الوزارة وزعماء الوفد الذي تأسس بمساعدتها بما وقع من الخلاف بينهم فهم المسؤولون — وان التنازع على رئاسة الوفد الرسمي الذي يتولى عقد الاتفاق

بين بريطانية العظمى ومصر اذا أمكن قدكان من أسباب هذا الخلاف

هذه قضايا لامراء فيها والعدليون يتهمون سعدا بأنه لاعذرله في الامتناع من تأييد الوزارة الا حب الرئاسة وقد اذاع كتابهم في جرائدهم وغيرها أن المسألة شخصية، وهذا عار كبير على الامة بأسرها . وسعد باشا يحتج بأنه يجب ان يكون هو الرئيس للوفد الرسمي لانه هو الممثل للامة التي وعدت الحكومة باتباع ارادتها في قضيتها السياسية والوزارة الحاضرة ليست الا وزارة الحماية الانكليزية فهي مظهر للسلطة البريطانية فاذا كانت هي التي تتولى ادارة المفاوضة ثم الاتفاق مع بريطانية فكأن ملك الانكليز هو الذي يتفق مع نفسه، وأن ما تعتذر به الوزارة أو تحتج به على ماتحرص عليه من جعل رئاسة الوفد الرسمي لرئيسها — وهو ان التقاليد المتبعة في جميع الدول ان رئيس الحكومة هو الذي يرأس كل جماعة رسمية يكون فيها وهو الذي يعقد المحالفات والاتفاقات مع الحكومات الاخرى – عذر باطل وحجة داحضه فان ماذكروه من تقاليد الحكومات المستقلة النيابية التي يمثل رئيسها الحكومة والامة جميعا اذ لا يكون رئيسا لها الا بتأييد مجلس نوابها الممثل للامة ، وهذا مباين لحال الوزارة المصرية

ويقول العدليون ان الوزارة أجابت سعد باشا الى جميع ما اشترطه لتأييد الوفد لها الا مسألة الرياسة فهما يكن له من حجة على طلب هذه الرياسة لنفسه، فليس له أن يوقع الشقاق في الامة لاجله، وناهيك بقبول كون أكثر أعضاء الوفد الرسمي من أعضاء وفد الامة الذين يختارهم رئيسه وكون الثقة بشخص عدلي باشا لانزاع فيها – وسعد باشا وحزبه يردون هذا القول بكلام لم ينشروه كله في الجرائد فينكرون اجابة ما عدا شرط الرياسة من شروط الوفد فقد كان أهم الشروط اصدار المرسوم السلطاني ناطقا بتحديد الاساس الذي تجري فيه المفاوضة على ما يتفق مع مطالب الامة ومبادئ الوفد كالنص على إلغاء الحماية البريطانية على مصر حتى امام الدول الاجنبية وعلى الاستقلال الدولي التام المطلق في الداخل والخارج ، ويليه شرط إلغاء الحكومة العرفية والمراقبة على الصحف لتكون الامة وصحفها حرة في أقوالها وافعالها لامسيطر عليها في ابداء رأيها الا القانون، فلم ينفذ شي من ذلك —

ويقولون أيضا ان الرئيس لم تبق له ثقة بأقتدار عدلي باشا على تحقيق مقصد الامة المصرية بعد ان تمحصت قضيتها لانه يرضى بدون ما ترضاه، ولاثقة له بأعضاء الوفد المتحيزين اليه فهذا كله مما كتب. وهو يفيد أنه لم يعد اشتراط كون أكثرية الوفد الرسمي من أعضاء الوفد غير الرسمي مفيدا، فاذا ألف عدلي الوفد الرسمي فجعل ثلثهم من رجال الحكومة الذين على رأيه والثلثين من أعضاء الوفد غير الرسمي وكان نصفهم من المتحيزين اليه تكون بيده الاكثرية الساحقة، واذا كان مع هذا هو الرئيس الذي يتولى ادارة المفاوضة فلا يبقى لرأي سعد باشا معه تأثير — فلهذا اشترط ان يكون هو الرئيس للوفد الرسمي لا لمجرد حب الرياسة فانه ليس فوق ما خولته إياه الامة من الزعامة فيها والرياسة لها غاية تطلب

واظهر حجة لبعض المدليين، رضيها بعض المعتدلين، هي ان الوفد الرسمي الذي ترضى بريطانية العظمى أن تتفق معه لابد أن يكون من قبل عظمة السلطان فاذا جاز ان يرسم السلطان لغير رئيس حكومته بتأليفه فلا يجوز ان يجعل سعد باشا هو الرئيس له اذ لاصلة بينه وبينه يعرف بها رأيه وفكره ودرجة اخلاصه له وهؤلاء ينكرون على سعد باشا عدم زيارته للسلطان عقب عودته، وهو يعلم أيضا ان الحكومة البريطانية لاترضى برئاسة سعد باشا — فاذا كان الامر كذلك فلا ينبغي لسعد باشا ان يوجه كل نفوذه في الامة الى منع ما اتفقت عليه الحكومتان بمحاولة اسقاط عدلي باشا والجائه الى استعمال نفوذ حزبه ونفوذ الحكومة الى جزائه على عمله بمثله الذي ادى الى شق عصا الوحدة وخسارته بل خسارة البلاد ما كان من اجماع الامة على زعيم واحد وهو هو (سعد باشا) وكان يكفيه الا يؤيده ولا يشاركه في المفاوضة ويقف له ولوفده الرسمي بالمرصاد فان جاء بالاستقلال التام الذي يرضاه هو والامة لم يكن عليه أدنى غضاضة في قبول ذلك وتوجيه نفوذ زعامته الى النهوض باعباء هذا الاستقلال الذي يشهد الجميع بأنه كان حجر الزاوية له، وان وقع الاتفاق الرسمي باسم من كان عونا له لاخصما. وان جاء بحماية مقنعة او استقلال صوري مقيد بقيود الامبراطورية البريطانية ومثقل باغلالها فليحمل عليه بحمل الامة على ردّ هذا الاتفاق وعدم التصديق عليه، فاذا لم ينفذ الاتفاق حينئذ

نكون باقين في موقفنا بل أقوى مما كنا بعد اعتراف انكلترة لنا بما اعترفت به ، وإذا نفذ نكون قد ربحنا ما تركته لنا من حقوقنا من حيث لم تتقيد الامة بالاعتراف لها بشيء باثباتنا حينئذ ان الوفد الرسمي المفاوض لا يمثل الامة أولم تقره الامة على ما عقده

والسعديون يردون على هؤلاء بأنهم موقنون بأن عدلي لا يأتي الا بالحماية المقنعة ، وبأن السكوت او ترك المعارضة يفضي الى نجاح الوزارة في اغتصاب الثقة بها من الامة بنفوذ الحكومة المعزز بالرجال والمال ثم الى التصديق على ما تتعاقد عليه مع الحكومة البريطانية فاذا اجتمعت القوتان على ادعاء هذا التصديق والاقرار له وكونه مبنيا على تلك الثقة والتفويض فأذا تفعل الامة الضعيفة بعد ذلك — فهذه صفوة حجج الفريقين في جوهر الموضوع وموضع النزاع وما نحن لما عدا ذلك من المراء والجدل بناظرين

الموازنة بين الرئيسين

(١٥) عدلي باشا يكن — رجل عزيز النفس كريم النحيزة مهذب الاخلاق رقيق الطبع أبي مترفع في غير كبرياء ، مبالغ في حفظ كرامة نفسه ، مع المراعاة لكرامة معاشره وجليسه ، واسع الحلم ، نزيه النفس واللسان ، قليل الكلام ، وهو كبير بيت يكن الذي هو أكبر بيوتات السلائل التركية في مصر بل هو البيت الاول بعد بيت الامارة ممن تولوا الاحكام والمناصب العالية — وهو كبير في نفسه كما أنه كبير في بيته ، حريص على حفظ شرفه — فهو بهذه الصفات جدير بمنصب السفارة والوزارة وبرئاسة الوزراء ، وقد أوتي من العلم العصري ما يحتاج اليه المنصب وقلما يوجد بمصر من يقسر كبراء الافرنج حتى الانكليز منهم على احترامه مثله ، بل هو قوي الشبه بكبراء الانكليز في ترفعه وآدابه وشمائله

ولكنه لم يؤت من طلاقة اللسان في الخطابة ، ومن بلاغة القول في الكتابة ، ومن الاقدام على مكافحة الخطوب ومصارعة الاخطار ما يؤهله لزعامة الامة أو التأثير فيها والسير بها في سبيل الارتقاء الاجتماعي ، ولا لقيادتها في ميادين الجهاد السياسي ، بل هو غير مستعد للتصدي لاحداث أدنى تأثير في الامة بنفسه ، ولعله لولا المناصب العالية التي تولاها — كادارة الاوقاف العامة ومحافظة العاصمة

والوزارة — لما كان يعرفه الا القليل من طبقات الامة الوسطى دع الدنيا ، وهو لا يعرفهم بالأولى

سعد باشا زغلول — هو رجل من بيت وسط من مديرية الغربية عربي السلالة — كما أخبرني صديقي المرحوم عبد الرحمن زغلول ابن أخي سعد باشا — طلب في حداثته العلم في الازهر وكان من حسن الحظ ان اتصل في أثناء ذلك بالاستاذ الامام وتلقى عنه وعاش معه زمنا وتخرج به فهو استاذه الاول ومربيه على ما خلق مستعدا له من الاستقلال في الرأي والفهم وقوة الارادة والشجاعة وصناعة الحجة وحب الحق ، وادرك أيام موقظ الشرق ومصلح مصر السيد جمال الدين الافغاني وحضر بعض أنديته وسماره ، ولما تولى الاستاذ الامام ادارة المطبوعات ورياسة تحرير الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) جعله محررا في القسم الادبي الاصلاحي الذي زاده فيها فتمرن على الكتابة في المسائل الاجتماعية والسياسية والادبية والاقتصادية واطلع على جميع شؤون الحكومة ، فان ادارة المطبوعات كانت في ذلك العهد مسيطرة على الجرائد وسائر المطبوعات ومراقبة على الحكومة تنتقد جميع اعمالها في جميع فروعها — ، وفي أثناء ذلك حدثت الثورة العرابية — فهو قد نشأ وترعرع وشب في حجر العلم والسياسة والانقلاب الفكري والاجتماعي والسياسي

ثم اشتغل بالمحاماة والتزم فيها جانب الحق فكان لا يقبل الوكالة في دعوى يرى ان صاحبها مبطل ، فبرع في الخطابة واقامة الحجة والاطلاع على القوانين والخبرة بشؤون الناس وأخلاقهم ومعايشهم وحيلها ثم صار قاضيا في أعلى مناصب القضاء الاهلي فاشتهر بدقته في التحقيق واستقلاله في الرأي وعدله في الاحكام حتى شهد له مستشارو الاستئناف من الاجانب والوطنيين كتابة بأنه رقى المحاماة وشرف القضاء بعدله واستقلاله . وهي شهادة لم ينلها فيما نعلم أحد من صنفه ، ثم صار وزيرا للمعارف ثم وزيرا للحقانية ثم وكيلا منتخبا للجمعية التشريعية

وكان في كل منصب من هذه المناصب الكفؤ الكريم والممتاز بين أهله فيه ، ولا نعرف أحدا في وطنه يشاركه في هذه المجموعة من المزايا بل قل ان يوجد له ند يضارعه في فرد من أفرادها — فهو بها أجدر افراد هذه الامة بزعامتها الاجتماعية والسياسية

الا أنه ينقصه من صفات الزعماء السياسيين — كما يقولون — ما يسمونه المرونة السياسية وهي تشمل سعة الصدر والحلم والمداراة والتمويه والخداع وان شئت قلت والبراعة في الافك والكذب الذي يحتمل التأويلات الكثيرة والتملق والبراعة في الاستمالة والتزلف عند الحاجة. وهو لغلبة ملكة القضاء على كل ملكاته لا يستطيع كل ذلك ولو تكلفا فهو لا يبالي بمن خالفه فيما يعتقد ولا يحفل بعداوته له ما يكن عظيما وقد كان الاستاذ الامام يقول ان سعدا خلق ليكون قاضيا ، ووصف سيرته في القضاء واستقصاءه فيه الدلائل ودقته في الاستنباط وحرصه على العدل. وخصومه يسمون هذه الملكة غلظة وكبرا أو يطلقون أمثال هذه النعوت على بعض لوازمها .

وقد زادوا في هذه الايام في نعته انه مستبد لا يخضع للشورى فهو يعمل باسم الوفد ما يراه وان خالف قرار الاكثرين . وهذا خلاف ما نعرف فيه ونعهد منه ، فاذا أردنا انصاف القائلين بهذا بحمل كلامهم على الصدق ولا سيما فيما ينقلونه من الوقائع المعينة فلا نرى جامعا يجمع بينه وبين ما هو معروف عنه من الانصاف والاستقلال ومعرفة قيمة النظام ومراعاة القوانين الا ما حدث في الوفد من الشقاق واختلاف النيات والاراء فان مثل سعد لا يخفى عليه أن شعبه الذي يفتخر بحق بارتقائه وأهليته لتولي أمور نفسه بنفسه في حكم دستوري لا يمكن أن يقبل في عمل من أعماله رئيسا مستبدا لا يجري على نظام الشورى ولا متكبرا لا يحترم آراء من معه وان هذان الخلقان لا يخفيان على أحد

على اننا قد سمعنا بآذاننا وسمع الجماهير مثلنا خطبه في المحافل والمجامع العظيمة وقرأها أكثر ممن سمعوها فهم يشهدون بأنه كان يعزو فيها كل عمل الى أعضاء الوفد ويذكرهم بمنتهى الادب والاحترام ويقدمهم احيانا على نفسه ، وعلمنا انه زار من لم يزره ممن عادوا من أوربة قبله مغاضبين لمع العلم بأنه كان أشدهم زراية عليه وصدا عنه ، وفضله على نفسه في احدى خطب المجامع الحافلة ، ولم يكن هذا بجاذب ذلك العضو الى الوفاق بل لم يزده الا حقدا وضغنا ، واعراضا وطعنا

الحكم في الشقاق بين أعضاء الوفد ورئيسه

(١٦) انني أعرف بعض أعضاء الوفد المصري معرفة صحبة وموادة، وأعرف بعضهم

معرفة مواجهة ومحادثة، وأجهل حال غير المشهورين منهم جهلة تامة، فأنا احكم بصدق الوطنية لبعضهم على علم وخبرة، واحكم به للآخرين على قاعدتي أصل البراءة وحسن الظن، وقد سمعت ما قاله المختلفون على رئيسهم سعد باشا وقرأت ما كتبوا — فرأيت أنهم قد اخطأوا في اجتهادهم، حتى على تسليم جميع أقوالهم، فكيف اذا كان القول الوسط المقبول في هذا الاختلاف هو القول في كل اختلاف بين فريقين في أمر من الامور العامة والمصالح السياسية والمسائل الاجتهادية التي تختلف فيها الآراء والانظار. وهو ان يكون كل فريق مخطئا في بعض ما اختلفوا فيه ومصيبا في بعض، فان جاز عقلا ان يكون أحدهما مصيبا في كل ما خالف فيه الآخر — فأي الفريقين هنا أجدر بأن يحكم له بالصواب ؟ آلفريق الذي يخطئه السواد الاعظم من الامة بعد معرفة كل ما أدلى به من الحجج وما أدلى به خصمه ؟ ولا يؤيده الانفر قليل جدا أكثرهم من أصدقاء افراده او من اتباع أصحاب العصبية منهم ؟ أم الفريق الذي يؤيده السواد الاعظم ويرمي مخالفيه بأشنع التهم وينبزهم بأفظع الالقاب؟

أقول ان المؤيدين لاعضاء الوفد الذين شاقوا الرئيس نفر قليل جدا بمجموع الامة مع العلم بأن الذين أيدوا الوزارة العدلية كثيرون جدا، فان الذين أيدوا الوزارة لا يؤيد جميعهم ولا أكثرهم أعضاء الوفد المشايعين لها ، بل أكثرهم يرى ان سعد باشا هو زعيم الامة بحق وانه هو المرجع الذي يعول عليه عند تحكيم الامة فيما يأتي به وفد الحكومة الرسمي من الاتفاق مع الحكومة البريطانية . ولئن كان المشاقون لسعد أول من أيده لي ويعتقد أهل الرأي انه لولاهم لما كان ما كان — فان المؤيدين له بعد ان أصر على السير في القضية بدون اتفاق مع سعد والوفد انما أيده اكثرهم بنفوذ الحكومة لا بنفوذ هؤلاء الاعضاء — فهم قد نزلوا بشقاقهم لسعد عن مقام الزعامة العامة في الامة الى أدنى مما كانوا عليه قبلها فان كانوا تركوا سعدا لحفظ كرامتهم الشخصية التي تقولوا عنه أنه لم يكن يعطيها حقها . ولتأييد المصلحة العامة التي قالوا انهم رأوه باستبداده غير أهل لها — فقد كانت خسارتهم الشخصية بهذا الترك أعظم ، وصاروا عن القيام بخدمة المصلحة العامة أعجز — فهذا هو وجه تخطئتي لاجتهادهم حتى على تقدير تسليم جميع أقوالهم ، وانما اكتب هذا لاجل التذكير وبيان وجه العبرة لمن يعتبر من

عقلاء أمتنا بما كان من اغلاط الزعماء والعلماء بالمصلحة العامة فيما نستقبله من حياتنا السياسية التي لانزال فيها اطفالا بالنسبة الى الامم التي طال عهدهم بالتمرس بأعمالها والجهاد في ميادينها

يقولون ان العمل معه صار متعذرا. فان لم نقل ان المتبادر انه صار متعذرا بعد المشاقة اذ كان متيسرا قبلها — قلنا ان الاخلاص في العمل للامة والحرص على وحدتها لايمكن ان يكون بغير جهاد شاق، وصبر واحتمال وايثار، وقد قيل في المثل «ان صح منك الهوى ارشدت للحيل» فعلى هذا لم يكن من المتعذر ان يقنع بعضهم بعضا بالتناصر والتظاهر على الرئيس — وهم معه — فيما يرونه منه مخلا بكرامة بعضهم، أو الاستبداد بالامر دونهم، كما تظاهروا عليه في الانتقاد الصريح في الجرائد والخروج من الوفد، فان كانوا توهموا انه كان الممكن اسقاطه واستبدال غيره به بل بحيثه من أوربة وما قابلته به جميع طبقات الامة من أدنى البلاد الى أقصاها من الحفاوة والغلو الذي كاد يكون من العبادة، فوقوع هذا التوهم بعد ذلك كله من أغرب الخطأ ولا سيما من هؤلاء الاذكياء العلماء بأخلاق الامم وسنن الاجتماع

لقد كان زعماء جمعية الاتحاد والترقي الذين شبهناهم بهم في أول المقال أهدى سبيلا منهم في المحافظة على زعامتهم ونفوذ جماعتهم في الدولة والامة، فقد كان ينكر بعضهم على بعض فيغلظون في الانكار، ولكن لم يكن ذلك ليتعدى انديتهم، ولا نفرق جماعتهم، وبذلك كان لهم الفوز على جميع الاحزاب المناوئة لهم على قوتها، الوفد المصري لم يكن له في الامة خصوم يعتد بهم ويخشى عليه منهم، حتى كانوا الذين شقوا عصاهم بأيديهم، وسنجد ألوفا من العاذلين لنا على هذه الطريقة — لا نتسامى الى منصب القضاء فنقول هذه الرأفة — الرأفة في الحكم عليهم، أولئك الذين يتهمونهم بأنهم قصدوا بذلك خدمة أنفسهم، وما نحن لهذه التهمة بشارحين، انا نكتب للوعظ والارشاد، لا للتحيز الى الزعماء والتحرف للاحزاب.

مكانة الزعامة في الامة ومكان سعد منها

(١٦) ان اجتماع كلمة السواد الاعظم من الامة على زعيم يمثلها ليس من الهنات الهينات، ولا من المقاصد التي تنال بسعي الافراد او الجماعات، الا بمساعدة الزمان

بوقائعه وأحداثه وإشعاره الامة بمعنى الزعامة والحاجة اليها ، واعداده لزعيم الكفؤ للنهوض بهما ، وتمثيل وحدتها فيما استمدت له وتوجهت اليه، فاذا وفقت الامة لثقة بزعيم كفؤ للزعامة وجب على جميع أهل الرأي والمكانة فيها أن يؤيدوه في العمل، ويقيلوا عثرته اذا عثر ، ويقوموا عوجه اذا زاغ وانحرف، وان لا يشترطوا في المحافظة على زعامته العصمة ، فان الكمال المطلق لله وحده ، فبذلك يرجى نفعه ، ويؤمن ضرر خطاه وضعفه ، ولا يحل لهم ان يؤاخذوه على ماينقمون منه بخذله ولا بالطعن في كفاءته لما يعقب ذلك من تنكيث قوى الوحدة ، وصدع بناء الزعامة ، ورب نكث يتعذر ابرامه ، ورب صدع لا يرجى التئامه.

وقد سبق القول بأن زعامة سعد كانت بالاكثرية الساحقة من السواد الاعظم، ولم تكن اجماعا سالما من الشذوذ كما كان يتوهم ، لان اجماع الامة التام على رجل واحد في الظاهر والباطن محال في سنن الاجتماع وأخلاق البشر ،وقد رأينا ان مظاهرات الحفاوة بقدوم سعد كانت تحجب عن الابصار ما على بعض الوجوه من وجوم اكتئاب، وان ضيجات الهتاف له كانت تشغل الآذان عما ينفث من الالسنة من هينمة إنكار ، بل كان يتخلل تلك الحفلات، مايشير الى ماسيكون بعدها من الحملات، وقد ضمنت في بعض المظاهرات اعتراضات فلسفية عليها، وشهدت احتفالين أقامهما جيراننا وجهاء مصر القديمة صرح في أكبرهما بما أختصره وان كان من لباب الموضوع .

دعيت الى الخطابة في هذا الاحتفال فأبيت لزهدي في الظهور على مثل هذه المنابر التي يتزاحم عليها طلاب الشهرة ، ورغبتي عن الكلام في السياسة في محافل أكثر شهودها من العامة ، وعجزي عن الاطراء ، الذي يألفه الجمهور في هذا المقام ، وكان من الخطباء فيه القمص مرجيوس خطيب قسوس القبط المشهور فخالف جميع الخطباء والشعراء الذين أخلصوا المدح والاطراء للرئيس سعد باشا بما جاء به من التزبيج وأمشاج القول المتضمن لتوقع الخلاف بين سعد وعدلي ووصف سعد بالعناد والصلابة والاشارة الى علاج مايتوقع فارتأى أن تقتدي فيه الامة المصرية بسيرة (الفاتيكان) عند انتخاب البابا وهي أن الكردينالات الذين لهم حق الانتخاب يجتمعون في حجرة يوضع لهم فيها قوت قليل ولا يسمح لهم بالخروج منها

إلا بعد الاتفاق على انتخاب أحد المرشحين

ولما سمعت خطابه آذنت الذين كانوا يراجعونني في اقتراح إلقاء شيء في الحفلة بأنني قبلت فدعيت فصعدت المنبر وألقيت خطابا بينت فيه تحقق تكوين الزمان للامة المصرية بالعصبية القومية ، وان اتحاد الكلمة، انما يحصل اذا مثلتها جهة واحدة ، وهي ما يسمونه الزعامة والرياسة . ومتى تكونت الامة وشعرت بنفسها ، هداها هذا الشعور الى الزعيم الذي يمثلها ، كما ينبت الرأس في الجنين عند تمام تكوين أعضائه وكم ينشأ في الامة من رجال جديرين بالزعامة ولا تعرف الامة قيمتهم ، لانها ليست أمة الا بالصورة الظاهرة كما تسمى صورة الاسد في الورق أو الجدار أسداً. وقد كان الاستاذ الامام يقول ياويح الرجل الذي ليس له أمة ، ولا يعقل ان توجد أمة راشدة لا يوجد فيها رجل بل رجال حقيقيون بالزعامة فيها . وقد كان الاستاذ الامام من الرجال الذين يقل في الامم الراقية أمثالهم ، بل قال فيه الاستاذ الدكتور براون من أكبر علماء الانكليز المدرسين في احدى جامعاتهم الكبرى (كمبردج) : انني لم أر في الشرق ولا في الغرب مثله . ولم تكن الامة قد تكونت في عهده تكونا تعرف به كنه قيمته ، وتعمل بارشاده وزعامته ، وهذا تلميذه الزعيم الكبير الذي تحتفل به اليوم قد كان أهلا لهذه الزعامة منذ سنين كثيرة ولم تكن الامة تعرف فيه ذلك على شهرته ، لانها لم تكن تعرف نفسها فتعرف زعيمها - ثم ذكرت من صفات سعد ما اقتضاه المقام ، وهو في معنى ما تقدم في موضعه من هذا المقال ،

وهنا تلطفت في الاشارة الى الرد على ما رماه به القمص مرجيوس من العناد والتعصب لرأيه ، وقلت ان الذي نعهده منه بالاختبار الاستقلال في الرأي واحترام الحقيقة والاعتراف بها اذا ظهرت له ، وطالما شهدنا له في داره محاورات في مسائل علمية واجتماعية كان ينصف فيها مناظريه ومحاوريه بكل ارتياح ، ويعترف بصحة رأيهم اذا ظهر له انه الصواب ، وربما كنا منهم أو معهم في بعض الاحيان.

واستطردت في الخطاب الى الرد على من ينكرون فائدة هذه الاحتفالات والمظاهرات بأنها هي الذريعة الوحيدة الى جعل عقيدة الاستقلال شعوراً عاما شاغلا لقلوب جميع أفراد الامة من جميع طبقاتها في زمن قصير ، والى تربية أطفالها

ونابتتها عليها ، فان هتاف الالوف الكثيرة من الرجال والنساء والاطفال في المجامع والشوارع والبيوت للاستقلال التام ولمصر الحرة ولزعيمها المطالب باستقلالها وحريتها والوفد العامل معه قد علم جميع الاميين من الطبقات الدنيا وأشعرهم بما لم يكن يعلمه و يشعر به الا أهل التعليم العالي والتربية الاجتماعية السياسية

وانتقلت من هذا الى بحث قلت انه أشبه بالدرس منه بالخطابة ، وهو ما يجب على الامة من العمل للمحافظة على دوام وحدتها وتكافلها في سبيل المطالبة باستقلالها وما يجب لحفظ الاستقلال والنهوض باعبائه اذا نالته وأهم ذلك وأعلاه ما يسمى المسألة الاقتصادية وحفظ ثروة الامة ؛ وليس هذا من موضوع مقالنا هذا فنلخص فيه ما قلناه في ذلك الخطاب وطالما كررناه في المنار وفي بعض المقالات التي نشرناها في المؤيد والجريدة ومن أشهر هذه المقالات ما عنوانه (الى أي شيء أنت يامصر أحوج)

وجملة القول إن مكانة الزعيم الذي يمثل وحدة الامة في اول العهد بتكونها السياسي ودخولها في ميدان الجهاد القومي للحرية والاستقلال لهاشأن عظيم في جهادها فيجب ان يحرص على تقويتها لئلا ينصدع بناء الوحدة في أشد اوقات الحاجة اليه ولا يخفى على أهل البصيرة ان تقويم عوج في الزعيم الموثوق به من السواد الاعظم ايسر من اسقاطه واستبدال غيره به ، وان تأييد الوحدة به على ضعف وعوج فيه ، خير من شق عصاها بخذله والتفرق عنه

فان استطاع خصوم سعد اسقاطه من مكانته ، باقناع الامة بعدم كفاءته، فمن ذا الذي يستطيع اقناعها بكفاءة زعيم آخر من بعده ، اذا فرضنا انه يوجد فيها كثيرون من مثله * ومثل كثير في الانام قليل * ؟ ومن ذا الذي يستطيع في كل وقت ان يحدث لها احداثا كالاحداث التي مهدت السبيل لزعامة سعد ؟ كغفلة رقباء الشعوب وحراسها، ورعاة الامم وسواسها ، وقطاع طرق الاستقلال والحرية عليها ، تلك الغفلة التي اوقعت انكلترة فيها سكرة الحرب أولا ونشوة الظفر آخرا فكان من أثر السكرتين في رجالها عصر ما وقعوا فيه من الاغلاط الايجابية والسلبية التي جمعت كلمة الشعب مع حكومته أول مرة في تاريخ الاحتلال. وقد أشرنا في هذا المقال الى ما كان من فائدة ذلك في تكوين الوحدة المصرية وجمع الكلمة على سعد في

وزارة رشدي، وقد تم ذلك وكل في وزارة عدلي التي هي وزارة رشدي بعينها في وقت آخر وترتيب آخر، اذ لولا هذه الوزارة لما امكن للشعب ان يحتفل بعودة سعد الى البلاد تلك الاحتفالات العامة التي لم يسبق لها نظير - ولكن وا أسفاه قد صدق في هذا المقام قول الشاعر « اذا تم شيء بدا نقصه » على أن هذا التمام وما تلاه من النقص انما كانا في طور واحد من اطوار حياة هذا الشعب الاجتماعية وفي فصل من فصول تاريخه؛ فعسى أن يفيده عبرة تقيه ان يلدغ من جحر مرتين ، وخبرة تجعل الفوز منه قاب قوسين

جهاد سعد الاخير

(١٧) علم سعد باشا بما كان من التجربة الاخيرة والاختبار، ان الامة التي اجتمعت كلمتها على طلب الحرية والاستقلال، وجعلته لسانها الناطق ، وقلبها الخافق، لم يمكنها إعلان رأيها وإظهار شعورها، الا بمواتاة الحكومة الوطنية لها، وان تأثير الحكام في أنفس هذا الشعب وما ورثه وتربى عليه من الخضوع لهم منذ التاريخ القديم لا يزول كله في أول نهضة قومية جديدة ، وان وافق أصول شرعها الالهي (وأمرهم شورى بينهم) وأصول الحقوق العصرية التي يسمونها الدمقراطية الحديثة ، ولعله لم يقدر هذا قدره كما ينبغي الا بعد الحوادث الاخيرة ، اذ لم يكن يخطر ببال أحد أن يصد عنه بنفوذ الوزارة الالوف الكثيرة ، حتى من أولئك الذين اقاموا له أكبر المحافل ، وآنق المآدب ، وأن يشايعهم على ذلك أكبر الجرائد ، فلهذا وجه كل عنايته الى تقوية روح شخصية الامة والفكرة الدمقراطية فيها بحملاته الشديدة على الوزارة العدلية في خطبه البليغة وبلاغاته واحتجاجاته المختلفة على سلوكها فيما سماه « اغتصاب الثقة من الامة »

فهو يمثل للامة وزارة عدلي باشا متفقة مع الدولة البريطانية على جعل سلطانها (أي حكمها وسلطتها) على مصر شرعيا بعقد معاهدة على أصول مشروع ملنر الذي رفضه هو البتة يلغى فيها لفظ الحماية ويقرر معناه بصفة شرعية ، بعد ان كان عدوانا تبطله الحقوق الاساسية والقوانين الدولية ، وترشى فيها البلاد بضرب من الاستقلال في الادارة يتعذر تنفيذه لما وضع في سبيله من العواثير والعقبات الكأداء ، على

أنه عرضة للالغاء أو الاسترداد ، مادامت قوة الاحتلال العسكرية راسخة الاقدام في البلاد ، وناهيك بما أنشأوا فيها من ميادين الطيران الحربية والتجارية ، لجعلها ملتقى جميع قوى الامبراطورية البريطانية

وأقول إن من أقوى حججه له على ان الانكليز يريدون خداع مصر وارضاءها باستقلال صوري حفظا منه دون حفظ سائر مستعمراتها المستقلة تعظيمهم لشأن حادثة الاسكندرية التي يمكن حدوث مثلها في كل بلد من البلاد يوجد فيه اجناس مختلفون او احداثه ببذل قليل من المال ، فقد هيجوا جاليات الاجانب والدول الاوروبية بها على المصريين وخوفوهم منهم على ارواحهم وأموالهم، إذ لم تكن الجيوش البريطانية بمدافعها وطياراتها حامية لهم ، واتخذتها برقياتهم وجرائدهم اياها حجة بالغة على ان المصريين غير أهل للاستقلال بالادارة والحكم

حادثة الاسكندرية ، وما ادراك ما حادثة الاسكندرية ، هي الحادثة التافهة التي عظم شأنها غلاة الاستعمار بكيدهم وعبثهم بالامم والدول ، ولعبهم بها كلعب الصبيان بالكرة ، حتى جعلوها من أعظم حوادث الكون التي يقتضي العدل بأن تكون القاضية على حرية الامة المصرية بأسرها — وهي ان بعض السوقة والعوام مروا في مظاهرة وطنية ببعض بيوت الروم (اليونانيين) وكانوا يهتفون لمصطفى باشا كال بعاطفة الوجدان الديني الذي لا يدع عدداً من جريدة اسلامية في تونس خاليا من الاشادة بذكره، والتعظيم لامره، فأطلق عليهم الرصاص بعض اليونانيين فأصاب بعضهم وجر ذلك الى تشاجر بين الوطنيين واليونانيين ومن يشتبه بهم من الغربيين قتل به أفراد من الفريقين وجرح آخرون والمصابون من الوطنيين أكثر ، وقد استنكر ذلك وأظهر الاسف لوقوعه جميع المصريين من جميع البلاد في جميع الجرائد ، واصدر الزعيم الاكبر سعد باشا زغلول وصية للامة بأن تبالغ في مجاملة الاجانب وحسن معاملتهم ولا تعتدي عليهم وان هم اعتدوا عليها

لكن السياسة التي تستحل كل منكر في سبيل مطامعها جعلت هذه الحادثة برهانا قاطعا على بغض جميع المصريين الذين استنكروها وقبحوها لجميع الاجانب وتعصبهم عليهم وتربصهم بهم الدوائر ليفتكوا بهم ، ولو كان المصريون متعصبين على

الاجانب وماقيتين لهم ، لظهر أثر ذلك في كل بلد فيه أجانب ليس لهم من القوة عشر ما للاجانب في الاسكندرية التي تكاد تكون بلدا أجنبية ولاسيما في اثناء ثورة سنة ١٩١٩ على الانكليز أنفسهم ، والهجوم على رشاشاتهم ومدافعهم ، وقد كانت السلطة في كثير من البلاد اماما الامة في تلك الاثناء لا للحكومة الوطنية ولا المحتلين — ولو كان المصريون كذلك لما نال اليونان في بلادهم هذه الثروة الواسعة التي ليس لهم مثلها في بلادهم ولقد كانوا قبل الاحتلال مع سائر الاجانب أعظم كسبا وأقوى نفوذا ، ولو كان المصريون كما ذكر لامكنهم ان يلفوا من النكاية باليونان بمقاطعة تجارتهم وزراعتهم مالا يبلغه الاعتداء على اشخاصهم

فحق لكل مصري ان يعد سلوك الانكليز في تكبير هذه الحادثة دليلا على نيتهم فيهم ، وهم يعلمون أنه اذا كان الاستقلال يتوقف في وجوده أو بقائه على استحالة وقوع مثل هذه الحادثة فلامطمع لان هذا مما يمكن حدوثه واحداثه في كل آن.

ومن غرائب تهافت هؤلاء البارعين في تصوير الحوادث بغير صورها والاستفادة منها في كل زمن بحسبه ان حادثة الاسكندرية كانت في الزمن الذي تروي لنا برقيات انكلترة وجرائدها أنباء الارلنديين (السين فين) اخدان المصريين في رفض العبودية البريطانية في تدميرهم للمباني التجارية وغيرها واغتيالهم لمن استطاعوا اغتياله من الساليين لحريتهم، ولم نسمع ان أحدا منهم احتج بهذه الافاعيل الفظيعة بمثل ما احتجوا على المصريين في حادثة تعد بالنسبة اليها ضئيلة، ويكثر وقوع مثلها في كل أمة، ولكن طوش هذا التهويل في الحادثة كثير من عقلاء اليونان وغيرهم من فضلاء الاوروبيين وشهدوا حقا بتسامح المصريين واكرامهم للاجانب وحسن معاشرتهم لهم ، ولوسكت هؤلاء او جروا في أباطيل تيار السياسة الكاذبة لغرسوا في قلوب المصريين وسائر الشرقيين من بغض الاوروبيين وسوء الاعتقاد فيهم مالا يمكن ان يتلافى بمستقبله الاحتلال العسكري للبلاد بل لايزيده الا اشتعالا، وهل يوجد بشر يحب الانسانية يود هذا ويرضاه؟

وجملة القول ان جهاد سعد باشا موجه الآن لتقوية الامة واعدادها لرد مايتوقع من تقييد وفد الحكومة البلاد به بضمها الى الامبراطورية البريطانية بأي اسم من

الاسماء وأي شكل من اشكال الحكم الذاتي بحيث يكون الاتفاق الجديد بين الحكومتين إن نفذ مظهرا من مظاهر القوة لاشية فيه من الحق وتستمر الامة على جهادها له حتى تنال حريتها تامة كاملة باذن الله وقوتها التي لاتعلوها قوة، ورحمته التي لاتضيع حقا الا على من فرط في حقه وترك الجهاد في سبيله فكان هو المضيع له بمخالفته لسنن الله في العمران

لهذا الذي شرحناه كنا نعجب جد العجب من طلب سعد لرياسة الوفد الرسمي وتولى المفاوضة لاننا نعتقد أنه لايخفى عليه ان الدولة البريطانية يستحيل ان تسمح بحرية مصر واستقلالها التام بمجرد المفاوضة السياسية ونقول في انفسنا لم يريد ان يعرض نفسه للفشل واذا كان لايرضى بجعل الحماية شرعية باسم آخر ؟ أم يظن ان الاتفاق على تولية أمر المفاوضة كاف في جعل ذلك المحال السياسي ممكنا وواقعا؟ ولما اعترض بعض الكتاب كأمين بك الرافعي على دخوله في المفاوضة الرسمية كنا محبذين لرأيه اذا كان عين رأينا الى ان صار شقاقا لزعيم الامة لان الزعامة المثلة للوحدة فوق كل شيء في هذا المقام . ولم نجد مخرجا من هذا العجب والحيرة الا بما جاءتنا به الجرائد الانكليزية من التصريح برفض سعد لمشروع ملنر برمته وعدم الرجاء بعقد اتفاق معه يرضى بريطانية العظمى — فظهر لنا من ذلك انه كان يخفي في نفسه شيئاوسع إخفاؤه دائرة الجدل ومجال الشقاق لان اظهاره يفسد الخطة التي كان يرى انه لابد منها وهي — أي الخطة — اما حمل الحكومة بقوة وحدة الامة على تقييد نفسها بالمرسوم السلطاني الذي طلبه حتى تكون الحكومة والامة كلمة واحدة لايخشى ان يفرقها الدهاء الانكليزي لينال مراده من جعل مركزه في مصر شرعيا — وإما جعل الحكومة عاجزة عن عقد اتفاق مع الدولة البريطانية لاترضاه الامة ويكون حجة عليها .

ولو تحقق الشق الاول من خطته لكانت الامة المصرية وحكومتها وسلطانها كتلة واحدة كلمتها واحدة، وإذ لم يتم فتأييد الوفد الرسمي والوزارة يحبط الشق الثاني — فتعينت معارضتها . ولم يكن التصريح بذلك لاعضاء الوفد المتفقين مع عدلي باشا من قبل ممكنا كما علم مما سبق من التفصيل ، بل لم يكن من الممكن أيضا ان يصرح سعد للامة عقب عودته بأن الدولة البريطانية تريد منا كذا وكذا وترى انها لن تجد اليه سبيلا

الا بقوة حكومة وطنية تصدع بناء الوحدة التي هي قوتنا في اظهار حقنا امام قواها الكثيرة التي تعتمد عليها في سلب هذا الحق منا لان هذا التصريح ينافي الخطة التي استنبطناها على كونه غير معقول — فان معناه دعوة الحكومة جهرا من أعلاها الى أدناها الى مقاومة الدولة البريطانية ، وهو تصريح لا يأتي من عاقل

النتيجة

(١٨) هذا ما ظهر لنا من سياسة سعد باشا وخطته بعد التروي والتمحيص ، ولعل هذا قد خفي على الالوف من الناس بضروب الجدل والمطاعن ، وا كثر من أيد وفد الوزارة الرسمي انما أيدوه في طلب الاستقلال التام المطلق لمصر والسودان الذي هو جزء من المملكة المصرية لا يقبل الانفصال وكثير منهم يعتقدون أن مطلب سعد وعدلي واحد وان عدلي اذا لم يوفق الى هذا المطلب فانه يقطع المفاوضة ويعود بالوفد الرسمي ادراجه خلافا لما يعتقد السعديون كافة . فالاحتمالات في نتيجة سعي الوفد الرسمي ثلاثة أو أربعة لكل منها عاقبة

الاحتمال الاول — عقد الاتفاق مع الحكومة البريطانية على اعترافها باستقلال مصر مع السودان استقلالا دوليا تاما مطلقا من كل قيد ينافيه مع محالفة بين الدولتين أساسها مبادلة المنافع كسائر المحالفات الدولية ، فان وفق الوفد لهذا فان الامة تتلقاه بالقبول والثناء وتكريمه يمثل ما كرمت به سعد باشا بل أعظم ويكون ذلك اجماعا صحيحا من الامة — وان فرض أن شذ سعد باشا عنها في ذلك وظل معارضا لعدلي باشا فانها تنبذه ظهريا وتحكم عليه بأنه يعمل لنفسه لا لها

فيادارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

الاحتمال الثاني — أن ييأس عدلي باشا من الاستقلال التام المبين في الاحتمال الاول او مايقرب منه فيقطع المفاوضة ويعود بالوفد أدراجه — وعاقبة هذا ان تعود وحدة الامة الى خير مما كانت عليه وتستأنف الجهاد السياسي في سبيل حريتها ، ويتفق سعد وعدلي ورشدي ثانية في ذلك ويكون الرجاء في النجاح عظيما ، فان يد الله على الجماعة كما صح في الحديث ويد الله لا تغلب . وقد رأيت من المحسنين للظن في هؤلاء الكبراء كلهم من كان يعتقد ان الخلاف بينهم صوري تواطؤا

تعليه لاجل المصلحة. ويتوقع كثير من العارفين بأخلاق عدلي باشا ووطنيته ان يقطع المفاوضة بل يرجحون ذلك على نجاحه فيها

(الاحتمال الثالث) — ان يصح رأي سعد ويعقد الوفد الرسمي الاتفاق الذي يقيد مصر وينظمها في سلك الامبراطورية البريطانية باسم من الاسماء المعروفة والمخترعة. وعاقبة هذا ان تتحول قلوب أكثر الذين كانوا يحسنون الظن بعدلي او رشدي عنهما ويكبر حزب سعد بل تكون الامة كلها معه الا من لا يذكر من طلاب الوظائف والمنافع من الحكومة ولكن لا يعلم أحد الا الله ما يترتب على اصطدام قوة الامة وقوة الحكومة المؤيدة بقوة الاحتلال اذا حاولت الوزارة تأييد الاتفاق بالقوة، ولا يظن أحد يعرف قيمة عدلي ورشدي بأنهما يفعلان ذلك ولكن قد يفعلانه في حال الاحتمال الرابع المذبذب بين هذا وبين الاول وهو: —

(الاحتمال الرابع) ان يعقد الاتفاق على اعتراف انكلترة باستقلال سياسي دولي تام لمصر في داخليتها وخارجيتها وحقوق في السودان لاتتبع مصر في الادارة وارتباط بالامبراطورية بمعاهدة لا يعرض مصر للخطر في سلم ولا حرب. وأعظم الخطر تعهد مصر بأن تجعل قواها ومواصلاتها تحت تصرف الجيش البريطاني وهو ما سبق المقطم جميع الجرائد الى بيانه. ففي مثل هذه الحالة تجد الوزارة من الانصار ما تقاوم به السواد الاعظم الذي يقوده سعد باشا ونسأل الله حسن العاقبة وانقاذ هذه البلاد من كل محنة انه سميع مجيب ؟

السياسة ورجال الدين فى مصر

يعلم رجال الاستعمار ما لا يعلم رجال الدين في البلاد المستعمرة بالفعل او بالقوة من سلطان الدين على الارواح، وتأثيره في الارادة الباعثة على الاعمال، فهم يعنون أدق العناية في كل شعب يغلبه سلطانهم بازهاق رُوح دين الشعب الذي هو غير دينهم، او تحويله عن مذهبه اذا كان مخالفا لمذهبهم ويبثون فيه دعاة مذهبهم الديني ويؤيدونهم بما لديهم من حول وقوة، ومن مناهضتهم لدين الشعب وإبعاد رجاله عن اعمال الحكومة ومناصبها وتحري جعل أصحاب الوظائف الشرعية الخاصة بهم لاحد ثلاثة رجال، إما رجل منافق فاسد الاخلاق ليكون بمله حجة على

رع ومنفرا عن الدين، واما رجل زكي ميال للاصلاح يشغلونه بالوظيفة وراتبها
جاء الترقي فيها عن عمل حر لا نسهل مراقبته فيه وصده عنه - ولا يقبلون مثل
اذا كان لهم مندوحة عنه - واما رجل مشهور بصلاح او علم ولكنه فقير جبان
يص على رزقه ، فيستفيدون من شهرته عند الحاجة

كذلك يحولون بين المستمسكين بعروة الدين والغيرة عليه وبين الترقي في
صب الحكومة اذا انتظموا في سلكها بمقتضى نظام البلاد من حيث يكلون أمر
هضة التعليم الديني ومراقبة المتدينين من عمال الحكومة ولا سيما عمال وزارة المعارف
، أهل الدين المتعصبين له منهم . ولا يثقون الا بمن يظهر لهم عدم المبالاة بدينه
بواتبهم فيما يعلم من مقاصدهم ونياتهم في ذلك

ومن الشواهد على ذلك ان مستر دنلوب الذي جعلوه مسيطرا على وزارة
مارف في معظم عهد الاحتلال هو قسيس من رجال المذهب البروتستانتي، وهل
لمم عالم من الازهر بأن يكون وزيرا بجانبه او رئيس ادارة او قلم تحت سيطرته ؟ لا لا

ومن الشواهد الجلية أيضا منع مجلة المنار من السودان ومصادرة نسخها التي أرسلت
مجلة واحراقها بالنار وذلك قبل الحرب التي اوجدت في زمنها المراقبة على الصحف
كل مكان، وقد علمنا من الثقات الذين كانوا في السودان أن المنع كان اجابة
بة بعض المبشرين ، وقد شكونا الامر الى السر ونجت باشا اذ كان الحاكم العام
سودان فما أشكانا وهو هو المعدود من أوسع الانكليز صدرا وألينهم عريكة
كثرهم مداراة واستمالة للناس

وا كبر الشواهد عندنا على ذلك مانفثت من قلم لورد كرومر في كتابه (عباس
اني) وهو هو الواسع الصدر الذي ضمن الحرية الشخصية في طول مدته ضمانا
كان من أكبر أسباب شهرة الانكليز الحسنة في الشرق كله ، تفلت من قلمه
هذا الكتاب ماشف عما كان منطويا عليه من التعصب الديني الذي كان يخفيه
رياء الفريسي الذي يوصف به البريطانيون واظهر للناس ان من أصول سياستهم
، كل مسلم تربى تربية اسلامية وتخلق باخلاق الاسلام بابعاده عن مناصب الحكم
بلاده وحصر هذه المناصب في المتفرنجين بالتربية الاوروبية الذين رماهم اللورد

نفسه في كتابه (مصر الحديثة) بأقبح النعوت ونبزهم بشر الالقاب. وهاك نموذجاً منه في ذلك

قال اللورد في أواخر الفصل الرابع من كتابه هذا بمناسبة الكلام على استقالة وزارة رياض باشا الاخيرة ماترجمته: « ان فشل تجربة رياض باشا لقنني درساً هو إن لا فائدة من محاولة قيادة الرأي العام الاسلامي في مصر بواسطة رجل مثل رياض باشا. على ان التجربة كانت في غير محلها فلو انها نجحت لكانت الحالة السياسية تغيرت تغيراً حسناً الا انها لسوء الحظ فشلت فشلا تاماً

« ولو جربت مرة ثانية تكون نتيجتها فشلا ثانياً فان من الواضح ان المسلم غير المتخلق بأخلاق الاوروبيين لايقوى على حكم مصر في هذه الايام لذلك سيكون المستقبل الوزاري للمصريين المتربين تربية أوربية ». فهذا قوله في رياض باشا الذي لم يتول الوزارة في هذا العصر رجل مثله في عدله وحسن ادارته واخلاصه وقد اثنى عليه لورد كرومر في خطبته الشهيرة (بالاوبرة الخديوية) وفي أحوال أخرى بما يثنى على غيره؛ ولكن ذنبه عنده انه كان يراعي الشعور الاسلامي ويحافظ على كرامة الاسلام

وقد اعتذرت مجلة المقتطف عن تصريح اللورد في كتابه هذا بمثل هذا الكلام — ولم تذكره — بأنه كتب كتابه هذا لقومه ولم يخطر بباله عند كتابته انه سينشر في مصر وغيرها من بلاد الشرق

وهذه السياسة قد لقنها المسيطرون البريطانيون للوظفين المصريين بالعمل فصار يعرفها كل أحد، وكان من تأثير ذلك مالا محل لشرحه هنا، وانما غرضنا ان تثبت ان المسلمين حقيقة وهم المؤمنون بعقائد الاسلام المتخلقون بأخلاقه المحافظون على شعائره وعباداته الحريصون على مجده وكرامته لم يكن لهم حظ كبير من حكومة بلادهم ولا سيما اذا تربوا في المعاهد الدينية كالازهر والتزموا زي علماء المسلمين

وغرضي من بيان هذه الحقيقة أن اذكر الغافل عنها بأنها أقوى أسباب بعد علماء الازهر في عهد الاحتلال عن الاشتغال بالمصالح العامة وسياسة البلاد، وكان الانكليز يظنون انهم أمنوا بهذا من القيام بنعرة قومية للمطالبة بحقهم من الحكم في

ادهم بدلا من الاجانب الذين افتاتوا عليهم فيها وحلوا محلهم في كل فروع أعمال
حكومة بلادهم ومصالحها ، وان من أكبر أسباب كراهة الانكليز لسعد باشا زغلول
أنه جاور في الازهر في حداثته عدة سنين ولكنهم لم يظفروا بطائل من نبزه بلقب
منصب الديني على حسب عادتهم « رمتني بدائها وانسلت » لانه قد اشتهر بالتساهل
الديني بما لم يشتهر به غيره من الوزراء وكان هو الوزير الذي أدخل تعليم الدين
المسيحي في مدارس الحكومة في عهد وزارته للمعارف فجاء بعمل لا نظير له في حكومة
من حكومات أوربة نفسها دع غيرها ، والنبط يعرفون ظاهره وباطنه ويعتقدون
انه اذا تم الاستقلال لمصر على يده وكان صاحب النفوذ اللائق به في حكومتها المستقلة
من حظهم منها سينيلهم مالم ينالوا في عهد الاحتلال

وقد كان الانكليز آمنين من انقلاب سياسي في البلاد بسعي الذين يتربون
على الطريقة الافرنجية ولا سيما الانكليزية لاعتقادهم ان هؤلاء لايهمهم غير اهوائهم
وشهواتهم الشخصية فبدا لهم مالم يكونوا يحتسبون وجاءت النهضة الحديثة من قبل
الشبان الذين نشؤوا في المدارس الاوروبية التربية سواء كانت بمصر او أوروبة
وانتقلت من هؤلاء الى الازهريين وغيرهم من شبان المعاهد الدينية ، فكان لهؤلاء
الشبان ولقليل من الشيوخ تأثير يذكر في نهضة سنة ١٩١٩ ولما سكنت الحركة
كان من الضغط على كثير من رجالها وشبانها في عهد وزارة توفيق باشا نسيم ما كان
وضع للازهريين وسائر طلاب المعاهد الدينية نظام خاص حظر على أهلها ان يشتغلوا
بالسياسة وفرض على المشتغل بها منهم عقاب ليس هذا محل بيانه

ولما تنفس الزمان لمصر في هذا العام وسمحت السياسة بما سمحت به من
المظاهرات للوزارة العدلية ثم لسعد باشا زغلول على أمل اتفاقه معها في العمل كان
لعلماء الازهر ظهور لم يكن لهم من قبل

فقد ظهر في ميدان الوطنية السياسية الشيخ محمد بخيت الذي كان من أقوى
أنصار الاحتلال في عهد إعلان الحماية الانكليزية على البلاد وقد ولي منصب افتاء
الديار المصرية فخدم السلطة المحتلة به أي خدمة فبرأيه ورأي شيخ الازهر في ذلك
العهد حذفوا اسم السلطان العثماني من خطبة الجمعة مع اعتراف البلاد له بمنصب

الخلافة ولم تجد بريطانية في أمبراطوريتها الهندية من رجال الدين كهذين الشيخين تستعين بهما على حذف اسم الخليفة من الخطبة — وهما اللذان أكرها علماء الازهر على اعانة الصليب الاحمر

وانفرد المفتي الشيخ بخيت باصدار تلك الفتوى الطويلة العريضة في تقبيح البلشفية والتنفير منها حسب اقتراح السلطة المحتلة، وقد سبقت جريدة التيمس الانكليزية الى خبار العالم بالفتوى البخيتية وبموضوعها قبل صدورها بمدة طويلة. ولذلك قامت عليه قيامة الجرائد الوطنية ورد عليها الازهريون وغيرهم

ولما اشترك الازهريون بالحركة الوطنية عند قيام الوفد بها كان الشيخ بخيت حربا لهم حتى قيل انهم هددوه واسقطوه في مظاهراتهم وطعنوا فيه بخطبهم واسمعوه مايكره في نفس الازهر في اثناء تشييع جنازة الاستاذ الشيخ ابراهيم القاياتي رحمه الله تعالى

وأما في هذه الكرة فقد اتفق مع الشيخ عبد الحميد البكري شيخ مشايخ الطرق الصوفية على الاحتفال بسعد باشا في دار الثاني الواسعة وانضم اليهما كثير من الشيوخ المدرسين في الازهر فكانوا من أرفع أنصار سعد باشا صوتا

ولما اشتد الخلاف بين سعد ووفده والوزارة العدلية مال الشيخ بخيت بأعوانه من الشيوخ الى تأييد الوزارة مع حفظ خط الرجعة مع سعد أو الصلة به وسعد يرى تأييد الوزارة منتهى القطيعة له وللوفد بل للامة فمن أيدها لايبقى له حبل ولا خيط يصله به ، فمن ثم عد الشيخ خصما وهدم ما بناه في هذه المدة القصيرة من المنزلة الوطنية وكثر طعن السعديين فيه من حيث صار العدليون يكبرون مقامه ويلقبونه مع أنصاره من الشيوخ بأئمة الدين الذين يجب تقليدهم في السياسة كما يقلدون في الدين.

ولكن زعيم هؤلاء الأئمة أو امامهم لم يلبث ان جنى على نفسه جناية أدبية تؤثر في صيت مثله ومقامه ما لا تؤثر الجنايات القانونية ، ذلك بأن الشيخ بخيتا افترص تألم الامة المصرية على اختلاف أحزابها من نبز بعض الافرنج لها بلقب التعصب الديني من جراء ماسمي حادثة الاسكندرية اذ زعموا ان بعض المصريين للاجانب بسبب مخالفتهم لهم في دينهم هو الذي حملهم على الاعتداء عليهم —

اقترص ذلك بنشر مقالة بليغة في فلسفة التعصب اعتقد ان سيكون لها أكبر وقع في قلوب جميع أحزاب الامة وطبقاتها لما فيها من الحقائق المتجلية في أبهى معرض من البلاغة والفصاحة بجمعها بين الجزالة وعلو الاسلوب والسهولة التي تتناولها افهام العامة. فهي تشرح معنى التعصب وتبين كنهه وأسبابه ودواعيه وكونه من سنن الاجتماع والعمران سواء كان مناطه الجنس والنسب، أو اللغة أو الوطن أو الدين، وأنه كغيره من الغرائز والملكات الانسانية له حد اعتدال يكون نافعا للامم والشعوب بالتزامه والوقوف عند حده، وطرفا أفراط وتفريط يعرض الضرر للامة بتجاوز حد الاعتدال الى أي منهما، فالاعتدال في التعصب أن يكون تعاون الجماعة أو الامة الذين تجمعهم رابطة على ما يحفظون به حقوقهم ومصالحهم ويرفعون به شأنهم في العلوم والاعمال التي يرتقي بها البشر وتتنافس فيها الامم — من غير تقصير فيما ينبغي لذلك يحول دون الغاية وهو التفريط ولا إسراف يحمل على ظلم الخارج عن هذه الرابطة والاعتداء عليه لانه مخالف وهو الافراط

وكل من تجلت له هذه الحقيقة من مرآة الشعب المصري يجزم بأنه لا يزال أقرب الى التفريط فيما ينبغي له من حفظ جامعته القومية والوطنية واعلاء شأنها بمساماة الشعوب العزيزة منه الى الافراط الحامل على العدوان على المخالفين وهضم حقوقهم كما يفعله جميع المستعمرين من الافرنج — فنشر المقالة في هذا الوقت كان عملا نافعا من وضع الشيء في محله في الوقت المناسب له

ولكن المقالة ليست من انشاء الشيخ محمد بخيت الناشر لها في الاهرام ولا هو بالذي يقدر على كتابة مثلها في أسلوبها ولا تحرير الحقيقة التي شرحت فيها، بل هي من مقالات الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) الشهيرة التي نشرت في جريدة (العروة الوثقى) التي أنشأها هو واستاذه موقظ الشرق وحكيم الاسلام السيد جمال الدين الافغاني (قدس الله روحهما) في باريس عقب احتلال الانكليز لمصر لمقاومة الاحتلال ودعوة المسلمين الى الاتحاد، وكان السيد هو المدير السياسي والاستاذ هو المحرر الاول لها. وقد نشرنا هذه المقالة في المنار من زهاء عشرين سنة معزوة الى الاستاذ الامام ثم نشرتها جريدة المؤيد نقلا عن المنار. ثم نشرناها في الجزء الثاني

من تاريخ الاستاذ الامام الحاوي لاشهر منشآته من مقالات ومكتوبات . ثم طبعت أعداد العروة الوثقى برمتها في بيروت ونسخها تباع في مصر، وبلغنا ان بعض الشبان يحفظونها عن ظهر قلب ، ولا غرو فالمقالات الاجتماعية في العروة الوثقى من المحفوظات التي يستعان بها على طبع ملكات الانشاء العالي في النفس ، كما انها من أفضل ما يوقظ الافكار ، ويبعث فيها روح العظة والاعتبار ، وينبهها لما يساور هذه الامة من الغوائل والاخطار ، مع بيان عللها وأسبابها ، وطرق معالجتها والتفصي منها ، وقد كان تنحل الشيخ بخيت لهذه المقالة منها على ماذكرنا من شهرتها أقرب ما ينتقد عليه ، ويسدد سهام اللوم والتثريب اليه

نشرت المقالة في الاهرام ، فلم تلبث ان كانت الشغل الشاغل للالسنة والاقلام ، وانبرت الجرائد اليومية لمؤاخذة الشيخ على هذه السرقة المفضوحة ، وطفقت الجرائد الهزلية تخترع النكت المضحكة المبكية في غمزته والزراية عليه ،وقد كان مما قرن به هذا الانتحال من الخذلان ان الشيخ بخيتا حرف في المقالة بعض الجمل وغير، وقدم وأخر ، وكان محمد بك ابو شادي المحامي الشهير أشد من انتقده اذ كتب في جريدة وادي النيل الشهيرة مقالا تهكميا في جعل موافقة ما نشره اليوم لما نشر بقلم الاستاذ الامام منذ أربعين سنة ومن باب توارد الخواطر وقد اودعه المقالة بحروفها ، مع التنبيه الى ماحرف الشيخ بخيت منها ، بجعل الحرف مقابلا للاصل في جدولين متوازيين ، ونشر محروس افندي عبده أخو الاستاذ الامام لابيه المقالة في جريدة الامة مقرونة بمايقتضيه المقام من الاستغراب والنقد . وقدحدثنا بعض العلماء الثقات أن بعض الناس في دمنهور طفق يقرأ المقالة عندوصولها اليه في اليوم الذي نشرتها فيه جريدة الاهرام فقال له أحد السامعين : على رسلك وألق السمع الي لاتمم لك قراءة ماشرعت فيه فانني أحفظه وأتم قراءة المقالة من حفظه فلم يكن بينه وبين مافي الاهرام الا تلك الجمل القليلة التي شوه حسنها التحريف

ولو ان الشيخ بخيتا نشر هذه المقالة مع مقدمة بين فيها ما أشرنا اليه آنفا من كونها أفضل ما يرد به على اتهام المصريين بالتعصب الديني الضار بحمله على ايذاء المخالف في الدين لانه مخالف وعزاها الى صاحبها أو الى العروة الوثقى اذا كان

يثقل على طبعه التنويه بفضل الاستاذ الامام باسمه — لكان خيرا له وللمصلحة العامة — أما الاول فظاهر وأما الثاني فهو ان علم الناس بصاحب المقالة ذي المكانة العالية المعروفة التي يتضاعف ارتفاعها في الانفس عاما بعد عام يزيدهم رغبة في قراءتها وتأملها والانتفاع بها ، ولاشك في ان قراءة الناس للمقالة قد زاد بعد ان نشر في الجرائد ما نشر من انكار انتحالها على الشيخ بخيت وعزوها الى الاستاذ الامام .وقد قلت لاستاذ شهير من أهل العلم والادب زارني في اليوم التالي لليوم الذي نشرت فيه المقالة : هل قرأت المقالة التي نشرتها جريدة الاهرام أمس للشيخ بخيت؟ قال رأيتها وقرأت اسطرا من اولها ولم أتمها ولم اضيع وقتي في قراءة مايكتب الشيخ بخيت في التعصب والبحث في تعريفه بمثل مايبحثون في الازهر بتعريفات الفنون . وقد كان مما حرف من المقالة بيان معنى التعصب لغة وعرفا فقدمه الشيخ عن موضعه فجعله في أول المقالة محرفا ، قلت ان هـذه المقالة هي مقالة العروة الوثقى الشهيرة التي تعرفها — وذكرت له تصرف الشيخ فيها فقال اذا أعود فاقرأها —

ألا ان فعلة الشيخ بخيت هذه من الغرابة بمكان وان كان أ كثر ما يكتب أمثاله ليس الا نقلا لما كتب من قبلهم ، واغرب ما حدثنا به غير واحد من الثقات عنه انه قال إن المقالة له ،وانه كان هو والمرحوم الشيخ احمد أبو خطوه يكتبان المقالات و يرسلانها الى الشيخ محمد عبده في باريس فينشرها والعروة الوثقى غير معزوة اليها ! ! وهذا تخلص عرض له في المجلس لم ير له مخرجا سواه ، وقد كرم نفسه ان ينشره في الجرائد ولو نشره لسمع من تفنيده وما يحتف بهذا التفنيد فوق ما منه توقعه من نشره

وان تعجب أيها القارئ لهذا الجواب ، فاسمع ما هو أجدر منه باسم العجب العجاب ، وهو ان الشيخ بخيتا قال في ملاء من العلماء ان فتواه في البلشفية قد كانت وسيلة الى أمر عظيم وهو تطبيق قواعد البلشفية وقوانينها على الشرع الاسلامي ، ذلك ان انور باشا امتنع على زعيم البلشفية (لينين) الشهير ان يساعده على نشر البلشفية بسبب هذه الفتوى وفتوى أخرى لشيخ الاسلام في الاستانة مختصرة في معناها فاضطر (لينين) الى تغيير قواعدها وجعلها موافقة للشريعة

على هذا وكان الشيخ بخيت هو والشيخ احمد ابو خطوه هما المحررين لتلك المقالات الاصلاحية التي نشرت في بضعة عشر عددا من العروة الوثقى فاهتز لها العالم الاسلامي وكادت تحدث فيه انقلابا عظيما على منع بريطانية العظمى إياها من دخول مصر والهند وغيرهما من الاقطار الاسلامية وفرضها غرامة تذكر على من توجد بيده. سمعت شيخنا الشيخ حسينا الجسر يقول: ما كنا نشك في ان العروة الوثقى ستحدث ثورة كبرى في العالم الاسلامي اذا طال أمرها الخ. وحدثنا الثقة ان الزعيم الكبير السيد سلمان الكيلاني نقيب الاشراف ببغداد في ذلك العهد كان يقول كلما قرأ عددا من العروة الوثقى لعله لايجيء العدد التالي له الا والانقلاب المنتظر قد وقع - او ماهذا معناه - هذا الروح القوي المؤثر المتجلي في تلك البلاغة العالية كان العالم يزعم ان مصدره اتصال كهربائية السيد جمال الدين الافغاني بكهربائية الشيخ محمد عبده نابغي الشرق والاسلام في هذا العصر، ذلك أول اتصال الذي تألق برقه فأضاء طريق النجاة للشرق وكاد يكون صاعقة محرقة لمستعبديه — ولكن الشيخ بخيت يقول اليوم لافراد من الناس ان هذا الروح روحه كان ينفخ فيه وهو في شرخ الشباب بما كان له ذلك التأثير في العروة الوثقى . ولكن ما باله قد زهق مدة أربعين سنة فلم يظهر له أثر في خطبة مؤثرة ، ولا في صحيفة من الصحف المنشرة ؟ وما باله اليوم وقد طفق يعيد ما بدا ، لم يحدث من التأثير الا التهكم والاذى ؟ وما بال مقالة الشيخ الثانية ، ليس فيها أدنى نسمة من ذلك الروح ، ولا أقل مسحة من جمال ذلك الاسلوب؟

نشر الشيخ مقالة ثانية في التعصب انتقم بها من الذين صوبوا اليه سهام الازراء والغميزة ، ومن الامة المصرية أو الاسلامية بجملتها أن سكتت لهم ولم يناضلهم عنه أحد منها ، افتتحها بقوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) وجاء بعد ذلك بجملة طويلة من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه وكتاب رياضة النفس من احياء الغزالي في صفات النفس وما في اعتدالها من الفضائل ، وما في الخروج عن الاعتدال الى طرفي الافراط والتفريط من الرذائل ، وجعل ذلك مقدمة لنفي الاعتدال وجميع مايتبعه من الفضائل عن المسلمين واثبات ضدها لهم بما كرره من قوله: لو أن المسلمين كذا لما فعلوا كذا وكذا من

المعاصي والرذائل ولا سيما التباغض والتحاسد وكل ما يصح ان يوصف به من خاضوا فيه بما خاضوا مما لايتسع المقال لنقله ولا لنقده ، الا ان نقول انه ليس فيه من موضوع التعصب الا اثبات أفراط المسلمين فيه كغيره من الاخلاق والصفات، وهذا تصديق للاجانب الذين رموا المصريين بالافراط والتعصب وزيادة لو فطنوا لجعلوا الشيخ حجة أو فتوى على عدم استحقاقهم الاستقلال ، وهو ينقض أو يناقض الغرض السامي الذي تراءى لنا انه نشر مقالة العروة الوثقى لاجله كما تقدم !!!

هذا ما كان من أمر الشيخ بخيت في تصديه وتصدره للزعامة السياسية مع رجال الدين وكنا نود لو يوفق في هذا العمل لما يرفع من قدر علماء الازهر ويثبت لمن راجت عليهم دسائس الاجانب في استحسان عزل رجال الدين عن السياسة وسائر المصالح المدنية أنهم أهل لكل ما ينفع الامة بأفكارهم واقلامهم وأعمالهم لان هذا ما نراه لهم وسبق لنا القول فيه مرارا ، فلا غرو اذا ساءنا جعل الشيخ مضغة في الافواه ، وان كان هو عقبة في سبيل الاصلاح الديني المدني الذي نسعى اليه حتى مقاومة البدع كما يعلم من ردنا على ما كتبه في تأييد بدع يوم الجمعة وغير ذلك فالشيخ بخيت لايصلح للسياسة

وأما قرينه في هذه الحركة الشيخ عبد الحميد البكري فهو يعد من رجال الدين بالوراثة ومشيخة الطرق التي هي وظيفة رسمية لتقاليد معروفة ، وانما كانت تربيته وتعامله مدنيين لا دينيين ازهريين وهو محافظ على فرائض الدين وآدابه وأخلاقه قلما يوجد مثله في الجمع بين العيشة المدنية كالمتفرنجين مع هذه المحافظة على الدين باداء الفرائض واجتناب المعاصي والرذائل ، وهو كما نعلم غير راض عن بدع أهل الطرق وان رضي ان يكون شيخا تقليديا لهم ، ويتمنى لو يستطيع الى اصلاح حالهم سبيلا ، ثم انه يحب الاصلاح الديني المدني الذي ندعو اليه وهو معتدل الفكر في ذلك على كثرة قراءته للكتب الفرنسية في الاجتماع والادب والسياسة ، وقلما تذاكرنا معه في مسألة الا وكنا على اتفاق او انتهينا الى اتفاق ، فهو في مكانة بيته وفي استقامته وآدابه واعتدال أفكاره أهل للزعامة الا أنه ينقصه من شروطها ما قلنا انه ينقص عدلي باشا فهو يشبهه في المبالغة في حفظ كرامته الشخصية والبيتية وفي الاحجام عن كل ما من شأنه ان يثير خصاما أو يعقب ملاما ، وفي عدم تعود الخطابة والكتابة والجدل

والمحاجة ، وقد عجبنا من دخوله في هذه المعمعة على خلاف مايعرف من طباعه على انه تصدى أولا لامر متفق عليه وهو الاحتفال بوكيل الامة ورئيسها قبل ظهور الخلاف فجعل احتفال العلماء به في دار الواسعة بن قصره الفخم ، ثم جارى الشيخ بخيتا على تأييد الوزارة مع حفظ الصلة او خط الرجعة مع سعد باشا ووفده، ثم جارى الامير عزيز حسن ورضي ان يعقد في باحة قصره اجتماع عام برأسه الامير للاحتجاج على تصريح وزير المستعمرات البريطانية المستر تشرشل

ولكنه لما علم ان سعد باشا سيخطب في هذا الاجتماع بعد ان صارت خطبه كلها تتضمن الرد على الوزارة والدعوة الى عدم الثقة بها — ترك الدار للمدعوين من جميع طبقات الامة الممثلين لها وسافر الى الاسكندرية ولم يحضر اجتماعهم . فاذا لم يكن هذا اعتزال منه للسياسة ومشاغباتها بل ظل عازما على الاشتغال بها مع رجال الدين او غيرهم فالذي أراه انه لا يمكن أن يمضي في ذلك ويثبت الا أن يكون رئيسا لجماعة من المتعلمين المعتدلين العارفين بحال العصر بشرط ان يسيروا بنظام مدون بحيث لا يعملون عملا الا بقرار مدون، وأنا ممن يرشحونه لهذه الرياسة ان هو أقدم ، وارجح انه لا يفعل

تبجح البخيتيين وغرورهم بلقب أئمة الدين

اذا اراد رجال الدين الاشتغال بسياسة أمتهم ومصالحها العامة فأحوج ما يحتاجون اليه من الاستعداد لذلك التوسع في تاريخ الملل والامم المعاصرة وما وقع فيها من الانقلابات الدينية والمدنية وما دعا الشعوب الاوروبية الى الفصل بين الدين والسياسة وازالة سلطان البابوات وتأثير ذلك في البلاد الاسلامية كبلادهم وبلاد الدولة العثمانية التي كانوا تحت سيادتها على تجلي سلطانها بلقب خليفة المسلمين ، ويجب ان تكون أولى الفوائد والحقائق المأخوذة من هذا التاريخ ان يعلموا أن شعبهم المصري . نفسه وسواده الاعظم من المسلمين لا يقبل أن يخضع لشيوخ يزعمون انه يجب اتباعهم والخضوع لهم في أقوالهم وآرائهم في السياسة والمصالح المدنية لانهم من رجال الدين ، وان انتحلوا لانفسهم ألقاب الائمة أو جاد عليهم بها في وقت من الاوقات من ينتفع بهم في مظاهرته على خصمه

أقول هذا لاني أراه اول شرط من شروط نجاحهم الذي اوده وأتمناه وقد ذكرني به مقال رأيته في بعض الجرائد لاحد أفراد حزب الشيخ بخيت يرد به

على سكرتير الوفد المصري فيما عزاه الى حزبه من خطأ لا أرى ما اتوخاه من الفائدة في نقد هذا المقال يتوقف على بيان الخلاف بين هؤلاء الشيوخ وبين الوفد، وهذه الفائدة بيان خطأ الكاتب فيما كتب كما خطأ في الباعث على هذه الكتابة وهو ماعلم من التمهيد آنفا

نشر هذا المقال في جريدة الاخبار بامضاء (عبد ربه مفتاح من علماء الازهر) وقد وصف فيه الشيوخ الذين خطأهم ناموس الوفد (سكرتيره) ورماهم بما ينافي الوطنية (كما يفهم من كلام الكاتب) بقوله انهم « اشرف وأرق طائفة في الامة بل في العالم الاسلامي وانهم قادة الامة وامناؤها على وحي الله تعالى الذي به السعادة الابدية او شقاؤها السرمدي » (كذا)

ثم قال بعد هذا الوصف: أيها القوم ان لكل مقام مقالا، وان مقام التكلم مع رجال الدين وفيهم مثل فضيلة الشيخ بخيت وسماحة السيد البكري شيخ مشايخ الصوفية وابن أبي بكر الصديق امين هذه الامة (؟) يجب الا يكون كما تكتبون. رجال الدين في كل زمان ومكان هم أمناء الله على دينه فمصيبة كبيرة وفتنة عظمى اذا رميناهم بالمروق من الوطنية من أجل انهم خالفوا في الرأي شخصا معينا »

ثم قال « هبوا العلماء اخطأوا في هذا أليس النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اتقوا زلة العالم » ويقول « لحوم العلماء مسمومة » فلما ذا استمرأتموها فأكلتم منها حتى التخمة ؟ اهـ

أقول ياللعجب من هذا العجب والغرور والدعوى العريضة والجرأة على رواية الحديث والاستدلال بكل ماجرى على الالسنة منه وان كان ضعيفا

من أين علم الاستاذ الكاتب ان هؤلاء الشيوخ الذين وقعوا مع الشيخ بخيت على ما ارتآه في المسألة المصرية هم أشرف وأرق طائفة في الامة بل العالم الاسلامي وهذا شيء لايمكن ان يعلمه الا الله تعالى ؟ وان أريد به ظاهر ماعليه الناس من العلوم النافعة والاعمال الصالحة، دون السرائر التي عليها المعول في الواقع، فهل طاف الاستاذ الكاتب العالم الاسلامي كله واختبر جميع علمائه وصلحائه واحاط علما بدرجات علومهم وكنه أعمالهم وشرفهم في بلادهم ووضع شيوخه الذين يرأسهم الشيخ بخيت في كفة ميزان وسائر أولئك العلماء والصلحاء في كفة فرجحت كفة شيوخه وشالت كفة أولئك ؟

ثم ما معنى التنويه هنا بنسبة السيد البكري الى الصديق رضي الله تعالى عنه ؟ أيجعل هذا كمشيخة الطرق مما يفضل به جميع العالم الاسلامي وهو يعلم كما يعلم كل من يعرف الناس ان في المنسوبين الى الصديق والى بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وغيرهما من الصحابة البر والفاجر ، وان مشيخة الطريق هي مما يعد على الشيخ عبد الحميد البكري ولا يعد له لأنها مشيخة بدع وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان ؟

ايه ! ايه ! أيها الاستاذ أربع على ظلعك ، وقف عند حدك ، وراقب ربك في هذه الالقاب والنعوت التي تكيلها جزافا ، واعلم ان أمانة الله على وحيه مرتبة عالية لاتنال بشهادة تؤخذ من الازهر وامثاله ، ولا بكسوة تشريف من الامراء والسلاطين ، أين آثار شيوخك في قيادة الامة التي نحلتهم اياها من الدعوة الى كتاب الله وسنة رسوله ومحاربة البدع والخرافات والالحاد والشبهات بها ؟ راجع ما كتبه حجة الاسلام الغزالي في الفرق بين علماء السوء وعلماء الآخرة لتعلم انه ليس كل من علم شيئا من هذه العلوم الشرعية وآلاتها العربية كما وصفت ، وراجع مراجعة خاصة ما كتبه هو وماكتبه الشعراني في الميزان في حديث « العلماء أمناء الرسل مالم يخالطوا السلطان » الخ

ايه ! ايه ! أيها الاستاذ من أين علمت ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ما اسندته اليه ؟ هل رويت هذا بالسند عن الشيخ بخيت وأمثاله الذين فضلتهم على جميع الامة والعالم الاسلامي فأديت الامانة التي تلقيتها عنهم ؟ أم تلقيت هذا من أفواه الذين يتجرءون على الرسول بغير علم فيسندون اليه كل مايسمعونه من فم أو يقرأونه في كتاب ؟ أليس هذا مما صرح الفقهاء والمحدثون بحظره وتعزير مرتكبه ومنعه ، كما بينه ابن حجر في الفتاوى الحديثية ؟

أما حديث « اتقوا زلة العالم » فقد رواه العسكري في الامثال والديلمي من حديث عمرو بن عوف بزيادة « وانتظروا فيئته » وأورده السيوطي في الجامع الصغير بلفظ : اتقوا زلة العالم وانتظروا فيأته ، وأبو نعيم في السنن وابن عدي في الكامل وراويه الذي انفرد به هو كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف ابن زيد المزني عن أبيه عن جده (١) قال الحافظ الذهبي: قال ابن معين ليس

(١) الحديث اورده الشيخ الحوت في كتابه « رسالة في بيان الضعيف من أحاديث الجامع الصغير »

بشيء . وقال الشافعي وأبو داود : ركن من أركان الكذب . وقال مطرف بن عبد الله المدني رأيته وكان كثير الخصومة لم يكن احد من أصحابنا يأخذعنه. وقال له ابن عمران القاضي : يا كثير ! انت رجل بطال الخ . وقال ابن حبان: له عن أبيه عن جده نسخة موضوعة. وقال ابن عدي :عامة مايرويه لايتابع عليه اه. وهو معنى حديث رواه البيهقي من حديث مجاهد عن ابن عمر وفيه « ان أشد ما اتخوف على أمتي ثلاث زلة عالم وجدل منافق بالقرآن ودنيا تقطع أعناقكم فاتهموها على أنفسكم » اهمن تمييز الطيب من الخبيث وهو في معناه حجة على الاستاذ الكاتب وان كان لايحتج به كما هو ظاهر

وأما جملة « لحوم العلماء مسمومة » فلا أعلم ان أحداً رواها حديثا بل وجدت في كلام لابن عساكر فأما ان يأتينا الاستاذ عبد ربه بنقل في روايتها حديثا وأما ان يكون هو الواضع لهذا الحديث وهوموضوع بلاشك. ونسأل الله تعالى أن يصلح هذه الامة ويلهمها رشدها ويقيها شر الغرور القائل انه على ذلك قدير .

وكتب هذا في الباخرة كابوباترة بالقرب من سواحل ايطالية

المعتصم بالله آل رضا

قد وهب الله تعالى لصاحب هذه المجلة غلاما سويا سماه المعتصم بالله . وكانت ولادته عند مطلع الفجر من يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ذي القعدة الحرام الماضي الشمس في ٢٥ من برج السرطان (ص ١) سنة ١٢٩٩ هجرية شمسية (الموافق ١٨ يوليو (تموز) سنة ١٩٢١ ميلادية) فنسأله تعالى أن يحييه حياة طويلة طيبة وينبته نباتا حسنا صالحا ويجعل له من اسمه أوفر نصيب فيكون قرة عين لوالديه وآله وأمته ، وان يستجيب دعاءنا عند مصابنا بأخيه الهمام قبل ولادته بأربعة أسابيع فيكون خلفا صالحا لذلك الفرط المقدم (الذي ظهر عليه في طفوليته من امارات الذكاء والنجابة والفصاحة ماينذر ظهوره من مثله)فيكون خيرا منه في ذلك كما وعد الصابرين المحتسبين ، وان يجعلنا على ذلك من الشاكرين آمين

خواطر

الاستاذ الشيخ محمد الخضر

١ — ان كبر عقلك فاصبح بعاملك مالم تعلم ، واتسم خيالك فبات يلقي عليك من الصور البديعة ما يلذه ذوقك ، فانت ما بين أستاذ يمحض نصيحته ،ونديم لا تمل صحبته

٢ — يبسط الشجر ظله للمقيل ، ويقف بقناديل الكهرباء على سواء السبيل السبيل ، أفتجيرانت من البوءس وهو أحر من الامضاء ، وتوقد سراج حكمة يهدي بعد موتك الى المحجة البيضاء

٣ — حسبت العلم ضلالا فناديت الى الجهل ، وآخر يزعم التقوى بلها فكان داعية الفجور ، ولولا ما تلقيانه في سبيلنا من هذه الارجاس ، لكنا خير أمة أخرجت للناس

٤ — هذه الدنيا كالمدسة الزجاجية في الآلة المصورة ،تضع الرأس،وطئ القدم ، ترفع القدم الى مكان الرأس ، فزنوا الرجل بما آثره ، الا بما يبدو لكم من مظاهره

٥ — يصنع الصائغ الحلي ، وتصنع ماتتجمل به النفوس في محافك العلى ،فان ظلت تتهافت على صانع الخواتم والسلاسل ، فاعلم انها مابرحت لاهية عن هذه المحافل

٦ — سميت الاستخفاف بالشرع حرية ،فقلت برع في فن المجاز فتهكم بمن أصبح عبدا للهوى ، وسميت النفاق كياسة فقلت خان الفضيلة في اسمها أو خانه النظر في فهمها

٧ — كان لسان الدين ابن الخطيب جنة أدب تجري تحتها انهار المعارف فآتت أكلها ضعفين ، ولكن تنفست عليه السياسة ببخار سام فخنقته ، وشبت نار الحسد في القلوب القاسية فاحرقته

٨ — سرت والنور أمامك فانطلق ظلك على أثرك ، ثم وليته قفاك فكان الظل يسعى وأنت على أثره ، وهكذا العقل يستقبل الحقيقة فيتبعه الخيال ، فاذا أدبر عنها انقلب الخيال الى امام ، وقاده في شعاب الباطل بغير لجام

الوثائق التاريخية في المسألة العربية (*)

٥

مذكرة الامير فيصل في مؤتمر الصلح

جاء في عدد جريدة الطان الذي صدر في ١٠ فبراير (شباط) سنة ١٩١٩ تحت عنوان (نشرة اليوم) ما ترجمته

(مطامع الحجاز)

من الأسف أن نضطر الى العودة الى البحث عن الحجاز. ان سكرتير الوفد الحجازي قد رد على النشرة التي نشرتها الطان مساء يوم الخميس (أي ٦ الشهر) بكتاب طلب الينا نشره فلا يسعنا والحالة هذه الا تلبية طلبه

كتب الينا عوني عبد الهادي يقول ان جريدة الطان نسبت الى ملك الحجاز مرامي توسع لم تدر في خلده البتة. ويردف سكرتير الوفد تكذيبه هذا بالتأكيدات القطعية بقوله « ان الملك حسينا لم يفكر قط بجعل مكة عاصمة جميع البلاد العربية التي تملصت أخيرا من النير التركي فهو يفهم أحسن من أي شخص آخر الاسباب التي لا يمكن للحجاز بسببها أن تتعرض للامور السياسية الخاصة بهذه البلاد . فالمناقضة والابهام اذن والحالة هذه ليستا في الميل والرغبة في ضم البلاد التي أظهرها ملك الحجاز بل هي بالاحرى في الشدة التي استعملتها بعض الصحف ونسبت بها الى هذا الملك أفكارا ودعاوي لم تخطر على باله

« ان ملك الحجاز لم يعلن الحرب على تركيا الا لتخليص اخوانه في الجنسية الذين كانوا يقاسون ظلم الترك من النير المخيف الذي كان يثقل كاهلهم كما يتضح من المنشورات التي أذاعها فيما بعد ، فهي لا يظهر منها انه بانضمامه الى الحلفاء ضد تركيا التي ارتمت في أحضان ألمانيا وحلفائها يرمي الى سياسة التوسع ، بل صرح مرارا عديدة بأنه لا يرغب في ضم شبر أرض من البلاد العربية الى مملكته سواء كان من سورية أو العراق . بل الفكر الذي يرمي اليه هو أن يرى كل هذه البلاد التي مسها الضر الشديد من جراء فظاعة الترك حرة مستقلة ، وهو غير مرتبط بأية وثيقة كانت خصوصية او عمومية مع أية دولة كبرى، ويرغب في أن تترك الشعوب العربية حرة لتقرير مصيرها طبق مبادئ الدكتور ولسون »

(*) تابع لما في الجزء الثالث

هذا ما قاله السكرتير حسين (عوني) عبد الهادي

على أن فرنسا وحدها تشعر بالرغبة في تأمين الحرية للشعوب العربية خصوصاً منهم سكان سورية التي كانت تحميهم سابقاً في الوقت الذي لم تكن حقوق الامم رائجة فيه بعد. وجريدة الطان نفسها بتوجيهها الانظار الى الحجاز الذي يحاول أن يوسع سلطته على سورية انما أرادت أن تدافع عن حرية العرب السوريين. ثم ان سكرتير الوفد الحجازي يؤكد أن الحجاز لا يروم أن يضم اليه شبرا من البلاد العربية لا من سورية ولا من العراق!

وجوابنا على هذا

ان واجبات اللياقة والضيافة لا تسمح لنا أن نجيب على هذه التصريحات باللهجة التي وضعت فيها ومن حسن الحظ ان مندوبي الحجاز أنفسهم هم أخذوا على أنفسهم الرد عليها فلنترك لهم الكلام بتحليل مستند حرره أنفسهم

ان هذا المستند الذي قد يمكننا طبعا نشره على علاته اذا أرادوا قد نشر بعنوان (مذكرة من الامير فيصل) الذي هو ابن ملك الحجاز ورئيس المندوبين الحجازيين الموجودين الآن في باريس وقد جعل تاريخها اول يناير سنة ١٩١٩ وقدمها الى الدول العظمى بمناسبة المؤتمر وهي بيان للمطالب الحجازية أفرغت في قالب من الوضوح والبلاغة يعودان بالمدح والثناء على الذي حررها، وانا ليسرنا والحق يقال أن ننشر للجمهور بيانا واضحا بدرجة هذا البيان وسيطلع كل شخص ذي ذمة علمه بكل سهولة دون أن يحوجنا الى تفسير كل دقائقه

مذكرة فيصل لمؤتمر الصلح الاول

استهل الامير فيصل مذكرته ببيان الاقسام المختلفة التي يدعوها آسيا العربية فقسمها الى ستة أقسام ورتبها الترتيب الآتي (سورية والعراق والجزيرة والحجاز ونجد واليمن) وقال انها تختلف خلافا كثيرا بعضها عن بعض ويتعذر دمجها في دائرة حكومية واحدة ولذلك حاول أن يعين المصير الذي ينبغي أن يكون لكل واحدة منها

ابتدأ أولا بسورية فقال ما يأتي (اننا نعتقد أن سورية هذه المقاطعة الصناعية الزراعية التي يقطن فيها عدد وافر من السكان من طبقات ثابتة هي بلاد متقدمة تقدما كافيا من الوجهة السياسية يمكنها معه أن تقوم بأعباء أمورها الداخلية، ونرى أيضاً أن الاستشارة والمعاونة الاجنبية ستكون عاملا

يمينا جدا لنمونا القومي ونحن مستعدون لصرف ما يلزم من النقود في مقابل هذه المعاونة ولا يسعنا أن نضحي في مقابلها أي جزء كان من الحرية التي أحرزناها قبلا بأنفسنا وبقوة سلاحنا) اه

وعلى ذلك فان سورية بناء على مذكرة الامير فيصل ستمنح استقلالا ذاتيا بما يتعلق بأمورها الداخلية ويدمج في خدمتها اخصائيون من الاجانب بدون أن يسمح لاية دولة أجنبية أن يكون لها أقل نفوذ في البلاد ، فمن يا ترى يقوم باعباء علائق سورية الخارجية ؟ الجواب على ذلك أن الظواهر تدل بأن ملك الحجاز يقوم بهذه المهمة وناهيك بما جاء في المذكرة من عبارة (نمونا القومي) وعبارة (الحرية التي أحرزناها بأنفسنا) كأن الحجاز وسورية لا تكونان في نظر العالم سوى دولة وحكومة واحدة

ثم انتقلت المذكرة من سورية الى العراق والجزيرة يعني الى جزئي مقاطعة بين النهرين وهنا أقرت النيابة الحجازية برنامجا مخالفا تمام المخالفة للاول ، نعم انها قد طلبت أن تكون الحكومة عربية (بالمبدأ والروح) الا أنها لم ترفض تدخل دولة أجنبية ، فقد جاء في المذكرة (ان العالم يرغب في سرعة استثمار ما بين النهرين ولذلك نرى أن شكل الحكومة في هذه البلاد لا بد أن يكون مستندا الى الرجال والموارد المادية التي تقدمها دولة أجنبية عظمى) اه . ان في هذا تنازلا لبريطانيا العظمى التي حفظت لنفسها السهر على ما بين النهرين في الوقت الذي كانت تعترف فيه لفرنسا بحق السهر على سورية

ثم جاء بعد ذلك ذكر المقاطعات الثلاث الواقعة في نفس شبه جزيرة العرب وهي الحجاز واليمن الواقعتين على ساحل البحر الاحمر ونجد التي هي المنطقة الداخلية فلم يسلم الامير فيصل بمذكرته فتح باب المناقشة في مصير هذه البلاد ، وبين بعد ذلك ان الحجاز ستبقى محكومة طبق الطرق العرفية وقال (اننا نقدر هذه الطرق تقديرا يفوق تقدير أوروبة لها ، ولذلك نطلب المحافظة على استقلالنا التام ، وأما اليمن ونجد فالارجح انهما لا تعرضان مسئلتهما على مؤتمر الصلح وهما سيتناقشان في مسائلهما بعضهما مع بعض ويقومان بترتيب علائقهما مع الحجاز وغيره)

ان هذه اللهجة ترجعنا سنة الى الوراء اذ يخيل لسامعها انه يسمع الموركولمن يتكلم عن مصير كورلندة الروسية

بقيت مقاطعة فلسطين فقد قالت عنها المذكرة الحجازية ان الاكثرية العظمى من أهالي هذه البلاد عربية وان العرب متفقون مبدئيا اتفاقا تاما مع اليهود « غير أن العرب لا يسعهم أن يخاطروا وأن يأخذوا على أنفسهم مسؤولية الاحتفاظ بالتوازن في خليط العناصر والاديان الذي كان على الدوام في هذه المقاطعة الوحيدة يدفع العالم للمشاكل ، ان العرب يتمنون أن يعطى مركز ممتاز في هذه المقاطعة لموكل عظيم في الوقت الذي تمنح البلاد فيه حكومة محلية نيابية تقوم بانماء عمران البلاد من الوجهة المحلية) اه

البرنامج الحجازي يقضي بتعرض دولةٍ عظمى في كل من فلسطين ومابين النهرين وليس هناك حاجة لبيان أن في هذا تنازلا للمصالح الانكليزيه .

ان هذه المطابقة لاتبرهن — كما كان قد صرح كاتب أسرار مندوبي الحجاز — على أن ملك الحجاز غير مرتبط بأي نوع من الوثائق الخصوصية مع أية دولة

وقد اختتم الامير فيصل مذكرته بقوله (انني بتشديد الاشارة الى الفروق الموجودة في حالة بلادنا الاجتماعية لا أود ان أقول بأن هناك اختلافا حقيقيا في المرامي والمصالح المادية والمعتقدات أو الاخلاق على وجه يجعل ارتباطنا متعذرا ، ان أهم عقبة يجب علينا تذليلها هو الجهل المحلي الذي تقع معظم مسؤليته على عاتق الحكومة التركية) اه فالمقصود اذاً تشكيل حكومة واحدة ينبغي اعداد أساسها بجمع شمل كل البلاد العربية التابعة للسلطنة العثمانية القديمة تحت زعامة ملك الحجاز الموجود في مكة ، ان الانسان اذا أمعن النظر في هذه الطلبات الرسمية تمكن من تقدير تكذيب ما أرسله الينا كاتم أسرار مندوبي الحجاز حق قدره عند ما كتب الينا (انه لم يدر في خلد ملك الحجاز البتة أن يجعل مكة عاصمة للبلاد العربية التي تملصت من النير التركي)

وعلى هذا فقد برح الخفاء وظهرت سياسة الحجاز التي كانت مفرغة في قوالب المبادئ الويلسنية كما كانت سياسة الحدود الالمانية في مقاطعتا كرانيا وبلاد البلطيق كأنها مشروع لضم البلاد أو من قبيل وضع أمبراطورية بدوية مكان امبراطورية تركية

ان مذهب الوحدة العربيـة يخدم مطامع فئة قليلة من النفعيين العرب والاوروبيين كما كان مذهب الوحدة الالمانية يخدم مطامع السلطة البروسية العسكرية فاذا كان هناك رغبة في نشر السلام في الشرق فينبغي اجتناب الوقوع

في هذه الحبائل . ان الوحدة العربية اذا كانت ممكنة التحقيق فانها لاتكون بالفتح والسيطرة ، ولا بالجميات السرية أو المساعدات المالية المستنكرة . بل لايمكن تأسيسها الا أن تجتمع فيابعد الحكومات التي قد تكون تعلمت فيابعد كيفية الحكم الذاتي وتكون أقبلت وأدركت بكل حرية منافعها المشتركة . ان كل سياسة أخرى تكون جائرة وعمياء من شأنها ان تثير في العالم الاسلامي حركات تقضي مصلحة حلفائنا البريطانيين العظمى ان يجتنبوها» اه كلام الطان التي توغلت في الاستنباط لما لقومها من الطمع في استعمار سورية، واندفعت هي وغيرها من الجرائد الفرنسية تحذر الانكليز من تأسيس جامعة عربية تمتد الى أفريقية وتعيد سلطان الاسلام الذي تتبجح هذه الجرائد بأن الحلفاء تركوه كالطير المقصوص الجناح من مملكة مراكش الى مملكة الاستانة!! وكانت في غنى عن تحذير الانكليز فهم أحذر من الفرنسيس وأدهى وانما يريدون السيطرة على جميع بلاد العرب ليحولوا دون تأسيس الجامعة العربية والفرنسيس يخافون عاقبة ذلك أكثر مما يخافون من ارتقاء عرب آسية ومصر ان يسري الى سائر عرب افريقية. فمن حماقة هذه الجرائد أنها تنفر العرب من أمتها من غير فائدة تجنيها من ذلك فالانكليز يسخرون من نصائحها ويعملون ولا يقولون

(٦)

﴿ استسلام الحجاز لبريطانية العظمى ﴾

جاء في آخر مقالة افتتاحية من عدد ٢٤٠ من جريدة القبلة الذي صدر بمكة ، ١٥ ربيع الاول سنة ١٣٣٧ ما نصه

« وها مقطعنا الاغر ينقل لنا في عدد ٩٠٣٨ الصادر بتاريخ ٢٦ صفر ١٣٣٧ ن تصريحات أم صحف العالم ولسان حال الشعب البريطاني الذي أثبت فضله على العالم ومنته على مجتمعه ولا حرج بمواقفه وثباته واقتداره السياسي والحربي والمالي ام أهوال سنيننا هذه الاربع من حسن نواياها وآمالها وما تريده ثقة واعتمادا ، معاشر العرب بقولها من بحث : سياستنا القديمة التي كانت ترمي الى تشييد كية وشد أزرها على اعدائها وأخذنا نحاول البحث عن بديل حر يحل محل السلطنة ثمانية البالية الفاسدة ، ومن هؤلاء الابدال الذين يحلون محل تركيا العرب أما يام فلسطين الجديدة وأرمينية الجديدة)

« رحب وتؤهل وتسهل بمن أنزلنا محل ثقته، وتوسمنا بالاهلية لمصادقته ،
ولا ريب فان على مثل هذا يتنافس المتنافسون ، ولمثله فليعمل العاملون »

« ألف ألف أهلا وترحيبة وأضعافها شكرا لمحسن الظن، وانا لانجيبه بما قال أحد أشياخ جاهليتنا: أحملني صغير وحملي كبيرا ،ولكن نقول ان العرب اليوم هم كالاشبال أو أفراخ الشياهين والبازي المحتاجة لصيانة آبائها

« ومع هذا فنستجدم أيها الداعي المحسن الظن ان شاء الله تعالى من حيث تريد، وتراهم بمنايته بيت القصيد. فاليكم بني يعرب ما أوتيتوه من طموح الانظار اليكم، وآمال أجل شعوب العالم فيكم، فانظروا ماذا تأمرون بعد ما وصفكم ذلك الشعب بما وصف،فأجيبوا داعي المكرمات ، وحققوا في نجابتكم التصورات، وكونوا خير أمة أحيت مندرس معالم سؤدد أسلافها للناس، ولانتم أرفع واسمى من أن تذكر له نكبات التخاذل وموارد الانعاس، أو تسيئوا بقولنا الظن وعكس القصد. وأيم الله انه الحق ، ونكرر ما أشرنا اليه في أعدادنا السابقة بانا معاشر الحجازيين ولا شيء من الرياسة أو السيادة ان كانت في سوري أو في يمني أو في حجازي ونحوه، ولا يهمنا ورب الكعبة الا أوليكم لبلادكم كتولي الشعوب المحررة لبلادها. وان داء الشامي هو داء اليماني وان في شفاء الآخر شفاء للأول. وان مايصيب أحدهما يصيب الآخر من خير أو عكسه . ومتى تفطنهم في ان أبسط دليل على هذا قيام الحجازيين ونهضتهم وهم ولا شيء مما اصاب اخوتهم من الضيم الذي سارت بأنواعه الركبان علمتم أنهم ادركوا تلك الغاية الجليلة واغتنموا تلك الفرصة لتخليهم بجلائلها،وان يمنعهم بدعة العيش التي هم بها من مسمع من أنين المضطهدين من اخوانهم عار عظيم لايغسله الا دماؤهم وكان بفضله ما كان فلاتعقموا النتيجة ولا تهدروا تلك الدماء الزكية والنفوس الابية » اهـ كلام القبلة بنصه السقيم

(٧)

﴿ كلام التيمس في اتفاق سنتي ١٩١٦ و ١٩١٧ ومذكرة فيصل ﴾

جاء في عدد التيمس الاسبوعية الصادر في ١٤ فبراير سنة ١٩١٩ من ضمن مقالة عنوانها (الوفود والصحافة — تحفظ شديد) ما ترجمته

اتفاقية سنة ١٩١٧

وهنا تظهر أيضا الاتفاقية السرية التي عقدت في أواخر فبراير سنة ١٩١٧ معينة مناطق نفوذ بريطانية وفرنسة وروسية في آسيا التركية، ان هذه الاتفاقية

عترفت باحداث دولة عربية مستقلة أو بحلف من دول عربية وبعد تعيين منطقة نفوذ روسية اعترفت بأن تأخذ فرنسة الساحل السوري وولاية اطنه والاقليم الذي حده من الجنوب خط عنتاب — ماردين حتى الحدود الروسية المستقبلة، ومن الشمال خط يمتد من ألاداغ الى قيصرية — اق داغ الى يلديز داغ فزاره فاجين خربوط ،وأن يكون لبريطانية الجزء الجنوبي من العراق مع بغداد وفي سورية نثرا حيفا وعكا »

«وبحسب الاتفاق بين فرنسة وبريطانية العظمى تكون بين المقاطعة التي بين الاقليمين الفرنسي والبريطاني دولة عربية مستقلة تعين فيها مناطق نفوذ وتكون الاسكندرونة ميناء حرة

أما الفرنسيون فيذهبون الى أن حقوقهم على سورية لاتستوفى مالم تعتبر سورية كتلة واحدة وان هذه الحقوق ليست — كما أشير اليها بمزاح — مبنية على شهرة البعثة السورية التي بقي صداها يرن في الآذان الفرنسوية بأعلى النغمة العظمى « مسافر الى سورية » ليست مبنية على هذا فقط بل للفرنسيس أساس أمتن من ذلك ناشئ عن الموقف الخاص الذي انتحلته فرنسة الجمهورية عدوة الاكليروس بقولها انها حامية للمصالح الكاثوليكية في الشرق . وقد كانت فرنسة دائما تحمد نفسها على موقفها في سورية ، وكانت على حملاتها على الاكليروس تسعى لحفظ النفوذ الادبي الذي لها في تلك الاصقاع بما احدثته من الملاجئ الدينية والخيرية والتهذيبية ، وهنالك عدد من الاسباب الاقتصادية الثابتة أيضاً تهتم به فرنسة بالطبع ، وعامة التجارة السورية تكاد تكون في الايدي الفرنسية . وان رأس المال الفرنسي هو الذي بدأ بتجهيز تلك البلاد بالسكك الحديدية والطرقات — فسورية بالنسبة الى ليون ومرسيلية هي اشبه شئ بنسبة افريقية الغربية الى ليفربول

مطالب الامير فيصل في المؤتمر

«وفي الحقيقة ليس في مطالب فيصل مايعارض مطامع الفرنسيس في سورية مباشرة — ففيصل يرغب في الاستقلال التام للحجاز وحده فقط، وأما سائر الشعوب العربية فانه يرغب لها في الاستقلال عن تركيا — وهو لاجل الحصول على هذه الغاية سل سيفه من غير ان يحصل على اي وعد من الحلفاء فانه لم تعط له وعود الا بعد ان أخذ في النجاح

« وقد اشار بأن تقسم البلاد العربية الى سلسلة حكومات صغيرة مجتمعة بحسب المصالح الاقتصادية والمشيرية (نسبة الى العشائر) وان تدير هذه الحكومات دولة من الدول المعظمة ، وكل دولة من هذه الدول الصغيرة تختار بحريتها الدولة المعظمة التي تقتضي حالتها ان تكون لها الوصاية على تلك البلاد »

« ويرغب فيصل بأن تطلب كل البلاد العربية دولة واحدة للوصاية عليها ، وكذلك يرغب اشد الرغبة بأن لا يرغم أي جماعة من العرب على وصاية لا يرضون بها »

« ولنفرض ان هذه الخطة طبقت فن الطبيعي ان تستثنى فلسطين ولبنان بالنظر الى المصالح القومية الخاصة ، وان نجاح هذه الفكرة وتطبيقها يتوقفان ولا شك على كيفية تحديد الدول العربية المتنوعة » اه كلام التيمس التي تتبجح جريدة القبلة باطرائها

---

(٨)

الغرض من مجيء المستر تشرشل الى مصر وفلسطين ومقابلته لوفد العراق

كان لاصحاب الاوهام سبح طويل في الغرض من هذه الرحلة لوزير المستعمرات البريطانية حتى جاء البيان لذلك فيما نشره المقطم في العدد الذي صدر منه في ١٩ مارس سنة ١٩٢١ تحت عنوان (مهمة المستر تشرشل) وهذا نصه :

رد المستر لويد جورج على سؤال وجه اليه في مجلس النواب عن مهمة المستر تشرشل في مصر فقال « ان المستر تشرشل سافر الى مصر ومعه ستة اوسبعة من موظفي مصلحة الشرق الاوسط ومن القسم المالي في وزارة الحربية ومن وزارة الطيران . وانه لا ينتظر ان يجتمع بأحد من زعماء العرب ويتوقع ان يقضي نحو عشرة أيام في مصر و بضعة أيام في فلسطين ثم يعود الى لندن فيعرض اقتراحاته على الوزارة . وقال سياسة الحكومة ستعرض على المجلس

وارسل المستر تشرشل كتابا الى المستر جورج رنشي رئيس جمعية الاحرار في دندي قال فيه انه لا يمكننا أن نستمر في انفاق الاموال الطائلة على العراق العربي بل يجب انقاص ما لنا من القوات هناك انقاصاً كبيراً جداً في الحال ومع ذلك فالقوات التي تبقى بعد الانقاص والتي يظن انها هي بالفرض بعد هذه السنة

تقتضي نفقات تختلف من عشرة ملايين الى احد عشر مليون جنيه في العام وهو أ كثر كثيراً مما يحق لنا انفاقه في تلك الجهة ولا سيما اذا ذكرنا عظم خصب املا كنا في غرب افريقية وشرقها والفرص السانحة لنا فيها لترقيتها لخير الامبراطورية بالنسبة الى الشرق الاوسط فاذا لم نوفق الى ايجاد مشروع أحسن وأرخص كثيراً من المشروعات التي امامنا الآن اضطررنا الى الجلاء عن العراق العربي ولكن الضرر والخزي اللذين يلحقان بنا من جراء هذا العمل يجب ان لا يقلل شأنهما ولا يصغر أمرهما . فقد قبلنا الوصاية على تلك البلاد وتعهدنا ان ندخل فيها انظمة من الحكم تفوق الانظمة التي قوضنا أركانها وتفضلها كثيرا فاذا نكصنا بعد هذا على اعقابنا وارتددنا بالعار الى الساحل كان ذلك حادث لا يتفق مع نبالة القصد وحسن السمعة اللتين عرفتا عن بريطانيا العظمى . واني أؤمل انه اذا انشأنا حكومة عربية تؤيدها قوة عسكرية متوسطة تمكنا من القيام بما يجب علينا من غير ان نوقر عاتق الخزينة البريطانية بنفقات لا مسوغ لها . على ان اقدامنا على انشاء حكومة عربية في بغداد فتح علينا باباً لم نر مناصاً من ولوجه وهو معالجة المسألة العربية كلها من حيث علاقتها بالمصالح البريطانية . فاذا لم تدبر الشؤون العربية بطريقة تضمن استتباب السلام والسكينة بين قبائل العرب في هذه الوهلة حال ذلك دون سحب عدد كبير من جنودنا من العراق العربي وانقاص نفقاتنا وعاقها كثيرا

ونشرت التيمس تلغرافاً لمكاتبها من مرسيليا قال فيه ان المستر تشرشل قبل ان يبحر منها قال : « من أكبر اغراض رحلتي ايجاد التفاهم بين انكلترا وفرنسا في الشرق وهو تفاهم عظيم الاهمية للفريقين وسأدرس الحالة في العراق وآسيا الصغرى فانه يتعين علينا ان نعيد السلام والنظام الى نصابهما في تلك الجهات مهما بلغت كلفتهما وننقص المصروفات الطائلة التي تنفقها بريطانيا وفرنسا فيها ولا ينال هذا الغرض المزدوج الا اذا نظمت الدولتان مساعيهما ونفقاتهما واني ذاهب الى مصر ومصمم على ادراك هذا الغرض — انتهى

[المنار] بين لنا الوزير بصراحته التي يقل مثلها في رجال قومه أن اضطرارهم الى ادارة أمور العراق بآلة حكومة وطنيـة لتخفيف النفقات أن يستعجلوا بوضع

الارهاق البريطانية في اعناق سائر البلاد العربية في الجزيرة المقدسة . ولهذا عادوا بالعطف على أوليائهم من شرفاء مكة ويقال ان من أغراضهم التي يسعى لها الملك حسين والامير أو الملك فيصل أن يعقد اتفاق بين أمراء اليمن ونجد يجعل فيها ملك الحجاز ممثلا لهم في السياسة الخارجية ليكون كل ما تتفق عليه معه انكلترة نافذا عليهم . على ان الانكليز يربطون أولئك الامراء باتفاقات معهم خاصة تضمن لكل منهم استقلاله الاداري الداخلي في بلاده وتساعده عليها باعانة مالية سنوية بشروط أهمها أن لا يعقد أي اتفاق مع دولة أخرى وان تكون انكلترة صاحبة الحق الاول في جميع المنافع الاقتصادية في بلاده !!

(٩)

آراء الامير فيصل في المسألة العربية والانتداب البريطاني

تلغراف خصوصي للمقطم

لندن في ١١ فبراير الساعة ١٠ : ٧ ليلا

اتيح لي ان احادث الامير فيصلا بلندن في المسألة العربية وارسلت اليكم بهذا التلغراف خلاصة اقواله لي وهي : —

« اني متفق تمام الاتفاق مع الفئة البريطانية الآخذة في الازدياد والقائلة بأنه حان لبريطانيا ان تكف عن بذل ارواح جنودها وبدر أموالها في العراق، أما غرضي من رحلتي الى أوروبا فهو اقناع الحلفاء بأن الزمان آن لتنفيذ الشروط التي خصنا الحرب عليها . وليس هنالك أقل رغبة عندنا في الاضرار بالمصالح البريطانية ولا التنصل مما قضى به الاتفاق علينا فاننا على عكس ذلك نعتقد ان محالفتنا مع بريطانيا العظمى دائمة ونرجو ان تظل كذلك وعندنا ان بقاءها هو في مصلحة الفريقين »

« أما البلاد التي يشملها الاتفاق فقد حددت تخومها تحديداً صريحاً جليا فليس ثمت مجال للخطأ والالتباس ونحن مستعدون لتأليف حكومة تستطيع ان تدير شؤون تلك البلاد على قواعد ترضي جميع الذين لهم شأن او مصلحة فيها »

« لقد أرسل الرئيس ولسن لجنة الى سورية للوقوف على آراء أهلها ورغبتهم في شكل الحكم الذي يرومونه ولكن تقرير هذه اللجنة لم ينشر قط فماذا يمنع نشره ؟

« ان البطء في انشاء حكومة تتوفر فيها أسباب الكفاءة آل طبعاً الى هياج الخواطر ولكن انتقاض العرب الاخير لايدل على رغبتهم في قطع علاقاتهم ببريطانيا وانما وقع لان بريطانيا سارت عامين على غير هدى فوقع الالتباس ونشأ الخلاف وسوء التفاهم وخاف العرب ان تستعمر حكومة الهند بلادهم »

« ان الذي يرومه العرب هو حكومة عربية تستمد النصائح والمساعدة البريطانية ومع اننا نعارض في ان نكون مسودين فلا نصر على الجلاء التام ولكننا نقول ان مصاريف كل حامية او ادارة ملكية من جانب بريطانيا يجب ان تدفع من أموالنا . ولم يختلف اثنان على هذا . أما الحكومة العربية التي ينوى انشاؤها فتضمن جميع المصالح السياسية والاقتصادية التي هي لبريطانيا العظمى . وكل قرض تحتاج اليه الحكومة العربية يكون مكفولا بمرافق البلاد الطبيعية الغنية . نعم ان البلاد اليوم اشبه شيء بالقفار ولكن الخبراء الزراعيين يجمعون على انها أخصب تربة في العالم اذا عني بفلاحتها وريها وزرعها . وهذا علاوة على مافيها من الكنوز المعدنية فانها عظيمة جدا وفيها مجال متسع للارتقاء والنمو ولاسيما منابع الزيت الكثيرة في انحائها »

« ان البلاد تفتقر الى الاموال التي تنشلها من وهدة الفوضى والدمار التي ألقاها فيها سوء حكم الغزاة الترك ولكن هذه الاموال لاتضيع سدى بل تشغل وتستثمر بربح كبير »

« واذا فتح مجال العمل امام الحكومة العربية بالانصاف والعطف فانها توفر على الحلفاء بذل الرجال والمال في المستقبل علاوة على الذي بذلوه من الاثنين حتى الآن »

(١٠)

حكومة شرقي الاردن بين السر هربرت صموئيل والامير عبد الله

عمان في ١٨ ابريل — وصل المندوب السامي الى عمان أمس مصحوبا بالكولونل لورنس والمستر ديدز واللورد ادوارد هاي فجرى للسر هربرت صموئيل استقبال ودي واحتفى به الامير عبد الله الذي كان مصحوبا بالمستر ابرمسون الممثل الاكبر لبريطانيا العظمى في جهة وادي الاردن وقد عين فيها حديثا وقد قدمت أربع طيارات من فلسطين ونزلت بجوار المعسكر في ميدان الطيران الالماني السابق .

واجتمع اليوم صباحا عدد كبير من فرسان البدو والدروز والمتاولة وقاموا ببعض الالعاب على ظهور خيولهم — روتر

عمان في ١٨ ابريل — ألقى السر هربرت صموئيل امام سرادق الامير عبد الله الخطاب التالي على ألوف من رجال قبائل العرب وهو : —

« اسعدني الحظ بأن قابلت في دار الحكومة بالقدس صاحب السمو الامير عبد الله لما زار فلسطين هو والمستر تشرشل احد أعضاء الوزارة البريطانية . والحكومة البريطانية تسر بفرصة التعاون مع الامير عبد الله في البلقاء (ماوراء نهر الاردن) وتثق بصداقته وحسن نيته كل الثقة وتقدر الصداقة وحسن الثقة اللتين امتحنتا في هذه الحرب الضروس الطويلة حق قدرهما . وتدرك الخدمات التي قامت بها الجيوش العربية في ذلك النضال وتقدرها حقها وترغب في ان التحالف الذي نشأ في اثناء الحرب توثق عراه في أيام السلم

كان الموظفون البريطانيون يساعدون في ادارة البلقا (ماوراء الاردن) منذ شهر أغسطس الماضي وسيظلون يعملون كمستشارين للامير وموظفيه من قبلي في انحاء البلاد المختلفة . وسيجدسموه في المستر ابرامسون كبير المندوبين البريطانيين موظفاً ذا مقدرة وخبرة عظيمة وهو وجميع الموظفين المشتركين معه في طول هذه البقعة وعرضها رجال يعطفون على الشعب ويميلون الى آداب اللغة العربية وسيتمكنون من المساعدة على زيادة ترقية البلاد . وسيفرغ قصارى الجهد لتدبير كلما تحتاجون اليه من العروض وفتح اسواق فلسطين لحاصلات بلادكم وتسهيل نقلها اليها . وسينظر بعين العناية في حاجة أهل البلاد التي نحن فيها على اختلاف طبقاتهم سواء كانوا من سكان المدن أو الفلاحين أو قبائل العرب حبا في زيادة هنائهم وبحسب حاجاتهم المتعددة ولادراك ذلك يجب ان تكون المحافظة على النظام والامن العام في المقام الاول من الاهمية . ويؤمل ان يحتفظ بقوة احتياطية تكون أكثر كفاءة وأشد حولا مما كانت الحال قبلا وتستخدم مع الجندرمة في توطيد سلطة الامير عبد الله والحكومة المحلية ويسرنا ان نلبي رغبات الامير عبد الله فنقدم عند الضرورة طيارات وسواها من المعونة الفنية لاغراض محلية وستؤول هذه التدابير الى استتباب السكينة في المقاطعات وتمكن أيضاً من اتخاذ التدابير لكبح جماح كل من يعكر صفو الامن في الاراضي المجاورة غرباً وشمالا

والحكومة البريطانية مصممة على ان لا تصير البلقاء (ما وراء الاردن) مركزاً للعداء سواء كان لفلسطين او لسورية ونحن نعلم اننا في اخراجنا هذا التصميم الى حيز الفعل نستطيع الاعتماد على معونة الامير عبد الله . ومن بواعث الارتياح الشديد لحكومة جلالة الملك ان تجد نفسها متحالفة محالفة متينة مع ممثلي الشعب العربي في جميع البلدان العربية . ومن البراهين الاخرى على ضمان هذا التحالف ودوام مودته سياستنا في البلقاء (ماوراء الاردن) ووجودي بينكم اليوم ممثلا لجلالة الملك لويد جورج . واني ارجو ان يتخذ من التدابير منذ الآن ما يرفع هذه البلاد الى مستوى من اليسر والرخاء لا يقل عنه في البلدان المجاورة او عما كان عليه في الازمان الغابرة

فاجاب الامير عبد الله بما يأتي : - « اشكر سعادتك على خطابك الرقيق وأقول بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن الحاضرين اني واثق بأن الامة العربية ستبرهن على انها خليقة بتحقيق كل ماوضع فيها من الآمال بمساعدة حليفتنا العظيمة . واني اطلب من الله ان يحفظ الملك جورج والملك حسين ويطيل سعادتها »

وقد قوبل الخطابان بالحماسة ثم عرض المندوب السامي الحرس من الفرسان الهنود وقدم اليه مشايخ القبائل وشاهد الامير عبد الله والسر هربرت صموئيل في المسائل ضروباً من فروسية الجركس واقتلاع الفرسان الهنود للاوتاد - روتر

انكلترة والعراق

جاء في تلغراف خصوصي للمقطم من لندن في ٢٨ فبراير : ان الحكومة البريطانية ابلغت انه اذا عرضت رئاسة الحكومة في ولايات العراق الثلاث على الامير فيصل فانه يرتاح الى المساعدة والمشورة المنصوص عليهما بباب الانتداب في عهد جمعية الامم وليس ذلك فقط بل يرى نفسه أنه لا يستطيع القيام بمهام هذا المنصب من غير معونة وهذه المعونة تكون عبارة عن خدمة عدد معين من الضباط العسكريين والضباط السياسيين وبعض الخبراء الفنيين للمعاونة في تنظيم قوات العسكرية المحلية وانشاء دوائر الحكومة الملكية وترقية الصناعات والاعمال

خلاصة من خطبة المستر تشرشل التي ألقاها عن أمور الشرق الادنى في مجلس النواب يوم ١٤ يونيو عند عرضه ميزانية الشرق الادنى عن عددي المقطم المؤرخين ١٧ و ٢٣ يونيو سنة ١٩٢١

قال الوزير : ان المؤتمر الذي عقده في القاهرة مع خبيرين من العراق وفلسطين

قرر وجوب التعجيل في انقاص الجنود في العراق من ٣٣ أورطة الى ٢٣ على ان يصير الانقاص ١٢ أورطة في أكتوبر فوفروا بذلك نحو ٥ ملايين جنيه، وان ميزانية الجيش في العراق وفلسطين لهذا العام ½ ٢٧ مليون جنيه واذا نجحت تدابير الحكومة فانها لا تتجاوز في السنة القادمة ١٠ ملايين

وقال ان ميل الحكومة البريطانية الى حل مسائل الشرق بواسطة آل الشريف في العراق وشرق الاردن يجب ان يرقب تأثيره في سواهم . وتكلم عن ابن سعود وقومه ووصفهما لسامعيه ، ثم قال ان الحكومة البريطانية قررت ان تواصل دفع الاعانة لابن سعود (وهي تبلغ ٨٠ الف جنيه) وان الملك حسينا اعرب عن استعداده لمفاوضة الامير ابن مسعود

ثم أعلن عزم الحكومة على انشاء دولة عربية في العراق يختار ملكها ، وقال ان الامير فيصلا غادر مكة الى بغداد فاذا وقع الاختيار عليه فانكلترة تؤيده وتشد ازره وتسعى للتوفيق بين العرب والاسرائيليين في فلسطين وتسهر على منع رجال الاحزاب الذين هاجروا الى شرقي الاردن من دخول سورية وقال الوزير : وليس في تعاوننا مع آل الشريف معارضة لمصالح فرنسة وأثنى على الامير عبد الله ثناء طيباً وقال انهم عهدوا اليه باعادة النظام وتعهد بمنع الاعتداء على الفرنسيس ثم قال: اننا لا نريد اكراه العراق على قبول ما لا يختاره أهله ، وعسى العراقيون ان يحسنوا الاختيار بحرية وحكمة بارشاد السر برسي كوكس — قال — وهناك سياستان في معاملة الجنس العربي احداهما ابقاء العرب منقسمين وانشاء ادارة من اعيانهم تعتمد على الغيرة والتنافر والثانية انشاء دولة عربية حول بغداد الخ . قال وهذه هي السياسة التي تصلح دون سواها

وتكلم عن جعفر باشا العسكري في حرب طرابلس والدردنيل وانه أنعم عليه بوسام القديسين ميخائيل وجورج وقال ان نفقات الجيش العربي تسدد من ايرادات العراق قال : واذا نجح تدبيرنا فالدولة العربية وحاكمها العربي تكون قائمة في بغداد قبل انقضاء السنة المالية

بلاغ المندوب السامي البريطاني في بغداد

من جريدة دجلة عدد ١١ المؤرخ ٣٠ شوال سنة ١٣٣٩ (٦) تموز سنة ١٩٢١

لاشك في انه ضبر خاف على العموم انه في يوم ١٦ يونو (الموافق ٩ شوال)

انتهى الى بغداد بيان خطاب ألقاه جناب المستر تشرشل في مجلس العموم البريطاني يوم ١٤ يوليو الموافق (٧ شوال) وقد شرح فيه وزير الدولة لسامعيه الحالة السياسية في بلدان الشرق الادنى ثم أعطى بيانا شافيا عن سياسة حكومة جلالة الملك فيما يتعلق بهذه البلدان

ان ماورد في ذلك الخطاب بشأن العراق قد صار نشره في الحال باذن مني بصفة كوني المندوب السامي في الجرائد الانكليزية والعربية في بغداد والبصرة وقد ظهر ان ما نشر قد أتى ببيان واضح عن سياسة الحكومة البريطانية . على انه بعد نشر ذلك البلاغ قد عرض علي تكراراً بأن العموم يرغب جدا بتصريح مني بصفة كوني المندوب السامي ورئيس الحكومة العراقية المؤقتة أشرح فيه النقط المهمة كاوردت في الخطاب المذكور فبناء على ذلك رأيت ان من الواجب علي أن أقوم بذلك فأقول :

(١) مما يذكر انه بعد بداءة الحرب العظمى قطعت العهود مراراً لاهالي العراق ولجلالة ملك الحجاز بأنه لن يسمح بوجه من الوجوه أن تعود العراق أو أي مقاطعة من المقاطعات المحررة الى السلطة التي كانت تابعة لها عند نشوب الحرب وان الحكومة البريطانية تقصد المحافظة على هذه العهود بحزم وثبات وتشعر انها تكون مقصرة في القيام بواجباتها بموجب هذه العهود فيما لو أهملت تقديم المساعدة للعراق في هذا الدور الابتدائي من حياته وانها تتركه بإهمال كهذا فريسة للاضطراب وعدم النظام . وفي ذات الوقت ان بريطانية العظمى غير مستعدة للاستمرار على حمل العبء المالي الثقيل والتبعة (المسؤلية) السياسية بمراقبة الادارة (ادارة العراق) للحد الذي كان ضروريا ريثما تعاد الامور الى أحوال السلم

ان الحكومة البريطانية كانت دائما ولا تزال ترى ان أفضل طريقة للقيام بعهودها وواجباتها هي مساعدة أهالي العراق على اقامة حكومة وطنية منهم بمساعدتنا فتنشأ بذلك دولة عربية مصادقة تكون بغداد عاصمة لها . أما حكومة جلالة الملك نفسها فترى ان أفضل أنواع الادارات للعراق هو حكومة دستورية برئاسة وازع (حاكم) مقبول لدى أهالي البلاد . على ان حكومة جلالة الملك ترغب في ان تبين بوضوح كما سبق فبينت تكرارا بأن ليس لها من قصد أو رغبة ما في اكراه الشعب على قبول وازع ما معين بل الامر بالعكس فانها ترغب في وجود الحرية التامة في الاختيار وابداء الرأي

ومع ذلك ان الحكومة البريطانية بصفة كونها الدولة التي تحملت مصاريف طائلة في العراق في أثناء السبع السنوات الاخيرة لا يمكنها ان تقف موقف العديم الاكتراث امام هذه المسألة فلها الثقة بأن الشعب العراقي سيستعمل الحكمة والحرية معاً في اختياره للوازع

وهنا أود أن أشير بإيجاز الى قدوم صاحب السمو الامير فيصل الى العراق فأقول ان موقف حكومة جلالة الملك في هذا الصدد هو كما يأتي :

ان عائلة الشريف هي العائلة التي نشرت اللواء العربي في صف الحلفاء أثناء الحرب التي لعبت دوراً ذا شأن في ربحها . وان القضية التي من أجلها دخلت في صفوف المحاربين كانت قضية حرية العرب يعني عين القضية التي قد تعهدت بريطانية العظمى بمظاهرتها ونجاحها في العراق . فبناء على ذلك عند ما سأل أنصار عائلة الشريف في العراق عن موقف الحكومة البريطانية إزاء دعوتهم للامير فيصل لأن يأتي العراق أجيبوا على ذلك بأن حكومة جلالة الملك لن تضع عثرة في سبيل ترشيح سمو الامير لعرش العراق واذا وقع عليه انتخاب الشعب فيلقى تأييد بريطانية له، فبناء على ذلك بينما وزير الدولة (المستر تشرشل) يردد رغبته في ان يستعمل أهالي العراق الحرية في الاختيار يرى ان ليس هناك من سبب للامتناع من ان يبين بوضوح بأن حكومة جلالة الملك تعتبر ان الامير فيصلا هو مرشح موافق لا بل حقاً أوفق مرشح في الميدان وترجو ان ينال معاضدة أكثرية الشعب العراقي

واذا تم انتخاب الامير فيصل تعتقد حكومة جلالة الملك انه يكون قد توصل بذلك الى حل ينطوي على أكبر الآمال في مستقبل سعيد مقبل لبلاد

ان حكومة جلالة الملك تعلم أن قد بحث في حلول أخرى ممكنة منها (أولا) تأسيس جمهورية و (ثانيا) عرض أمير تركي . أما في ما يخص الاول فمن رأي حكومة جلالة الملك ان درجة العراق من الرقي غير موافقة قطعيا لتأسيس جمهورية . وأما فيما يخص عرض أمير تركي فهذا حل ليست الحكومة مستعدة لافساح المجال له

ومن المؤمل ان العبارات التي أوردت أعلاه تفسر بوضوح سياسة حكومة جلالة الملك وهي سياسة قد استحسنها بالاجمال الجمهور البريطاني والصحافة البريطانية حسب ما بينت في خطاب المستر ونستون تشرشل واني أوافق عليها كل الموافقة بصفتي المندوب السامي الذي من واجباته وواجبات موظفي تفسيرها بدقة .

باب المراسلة والمناظرة

فناء النار والرد على ابن القيم

٢

منا الموضوع في الكلام على فنائها ثلاثة اقسام الاول في الآثار التي استشهد بها العلامة
ابن القيم على فنائها الثاني على الآيات الثلاثة الثالث على مقتضى الصفات ومجال العقل فيها
أما الاول فقد تكلمنا عليه في النبذة الاولى وبينا أن الآثار لا تصح عن عمر ولا عن
غيره من الصحابة (رض) وقلنا حتى لو صح لما كان حجة في هذه المسألة الكبرى
الاعتقادية. وأما الكلام على الآيات الثلاث فمداره على تحقيق معنى الخلود المستثنى منه
أولا والمشيئة ثانيا والمقصود من الاستثناء ثالثا وهل هذه الآيات من المحكم أو من المتشابه
أما الخلود المذكور في هذه الآية (آية الانعام) وآية هود وجميع آيات القرآن
فلا يعرف الا من كتب اللغة وقد رأينا لسان العرب الذي هو اكبر قاموس
نظم معجم عربي يقول: (الخلد) دوام البقاء في دار لا يخرج منها خلد يخلد خلدا
وخلودا بقي واقام ودار الخلد الآخرة لبقاء أهلها فيها اه. ومما يدل على انهم
يستعملون الخلد مجازا فيما لا يبقى لطول مدته قول صاحب اللسان: والمخلد من
الرجال الذي اسن ولم يشب كانه مخلد لذلك وخلد يخلد خلدا وخلودا أبطأ عنه
الشيب كأنما خلق ليخلد قال والخوالد الاثافي في مواضعها والخوالد الحجارة والجبال
والصخور لطول بقائها بعد دروس الاطلال اه. فانظر الى قوله فيمن ابطأ عنه
الشيب (كأنما خلق ليخلد) وقوله (لطول بقائها) للاثافي والحجارة والجبال فانهم
شبهوها بما يبقى ولا يزول وتصوروا فيها لطول البقاء مايصح ان يطلق عليه لفظ
الخلود الذي لم يوضع الا لدوام البقاء كما ذكر معناه الاول أول المادة ومنه تعلم أن
الفناء مناقض له كل التناقض لانه قطع البقاء الذي اخبر الله به وعدا ووعيدا في سبعمائة
آية من كتابه في الجنة والنار ففرق قوم بين الاخبار بدون دليل يصار اليه ويقوم حجة
على خصمهم تقول لهم ياقوم هداكم الله في كل من الجنة والنار قال الله «خالدين فيها
أبدا» و«خالدين فيها» دون أبدا، فبأي شيء فرقتم بين الخالدين والابدين فلا تجدا إلا

تعليلات واهية وكلاما طويلا ضرره اكثر من نفعه كأنهم لم يجدوا غير الخلاف صناعة ولا سوى الكلام بضاعة حتى اضطر ان يجاريهم من لم يكن منهم ابن قيم الجوزية وحسبنا الله ونعم الوكيل

واما الابد فقال في اللسان في مادة أبد: والابد الدائم والتأبيد التخليد وأبد بالمكان يأبد بالكسر أبودا أقام به ولم يبرحه اه . فعلى هذا لا يستدل بما اصطلح عليه الناس (كالمصريين) في التأبيد اذ جعلوا له مدة محدودة ولم ينزل القرآن بلغتهم ولا عبرة باصطلاح ولا عرف يخالف اصل اللغة التي نزل بها كلام الحكيم الخبير :

فاسمع لقوله تعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت) فانظر كيف قابل الخلد بالموت الذي هو الفناء وتأمل معناه تجده كما قال صاحب اللسان انه دوام البقاء فكأنه يقول لرسوله وما جعلنا لبشر من قبلك دوام البقاء أفئن مت فهم الباقون، كل نفس ذائقة الموت الخ وهذه الجملة الثانية مؤكدة لمعنى ما قبلها فنفر الله لنا ولهم وهدانا واياهم سواء السبيل

واذ قد عرفنا[1] معنى الخلود الوارد في الآية وانه هو الذي يعطينا دوام بقاء المؤمنين في الجنة كما علمنا به دوام الكافرين في النار وانه هو الاول في الالفاظ الدالة على معنى البقاء والابد بعده في الترتيب ولا يعرف في اللغة لفظ أدل على البقاء منهما في المخلوقات على ما أظن

وأما ما ذكر في الاساس من مثل قولهم : رزقك الله عمرا طويل الآباد بعيد الآماد: فهو مبني على التوسع وتصوير مالا يكون في حيز الكائن على حد قول الشاعر: «وتخافك النطف التي لم تخلق»[2] ومثل هذا كثير في قولهم[3] ولكننا نسائلهم في أصل وضع الخلود والابد وقد عرفت معناهما عن اللسان فيما تقدم[4] على ان الله تعالى اخبر بكل لفظ مفيد

---

(١) المنار : ليس في بقية الكلام جواب لقوله واذ قد عرفنا

(٢) المصراع من بيت للمتنبي وهو

وأخفت أهل الشرك حتى انه   لتخافك النطف التي لم تخلق

واسناد الخوف الى النطف فيه من المجاز العقلي (٣) جعل عبارة الاساس من المجاز وهي فيه من الحقيقة ومزية الاساس على سائر كتب اللغة التفرقة بين الحقيقة والمجاز

(٤) المنار : ما نقله عن اللسان في تفسيرها لا يدل على معنى البقاء الذي

دوام والبقاء عن كلتا الدارين وكلا الفريقين فقال لهم فيها دار الخلد وقال عذاب مقيم

اذا عرفنا ما تقدم أمكننا أن ننظر في الاستثناء المذكور في آية الانعام جاعلين نصب أعيننا ماورد في آيات الله تعالى من وعده للمؤمنين ووعيده للكافرين كذلك الاحاديث الصحيحة المصرحة بخروج عصاة المؤمنين من النار. أما الآيات مصرحة بدخول الكافرين النار فهي كثيرة وعلى كثرتها محكمة لاناسخ فيها ولا منسوخ ولا متشابه(١) ولا يصح أن نؤول كل هذه الآيات ونركب كل صعب لقول حتى نجعلها كلها من باب الرعد الذي ليس وراءه شيء لتنظمها في سلك آية جد فيها ذو والشبه ما يوافق اهواءهم ويثبطون به همم غيرهم ويشغلون به الافهام كم مني الاسلام بهم ونفذت فينا سهامهم حتى اختلفنا في كتابنا كما اختلفوا في تابهم وكان ذلك قدرا مقدورا قال تعالى (ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد ستكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا لنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم) لمعنى خالدين فيها يا أهل النار (؟) (وهم من مر ذكرهم) الا ماشاء الله من هذا الخلود (؟) أن يخرجهم من داره (؟) لانه حكيم لايخلد الا الكافر الذي اخبر عنه في كثير من آياته، عليم بمن يخرج من أهل الايمان الموحدين. فالآية قد جمعت عدا ووعيدا وكثيرا ما يذكر الله في آياته أحدهما بعد الآخر على حد قوله تعالى (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين * والذين آمنوا وعملوا الصالحات الخ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون!) وكقوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا * الا من

= لانهاية له فان المقيم في دار لا يخرج منها كالمالك لداره ليس بباق هذا البقاء هو ولا داره بل كانوا يطلقون هذا على من شأنه المكث وعدم التحول كما حول البدوي أو الذي يقيم في الدور المستأجرة. وانما البقاء الذي لانهاية له صطلاح شرعي لا لغوي فلم يكن هذا المعنى معروفا عند عرب الجاهلية

(١) لا معنى لنفي النسخ لانه خاص بالاحكام

تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً) فما يخبر سبحانه بوعيد وانذار ألا ويعقبه بوعد وبشارة (ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) فلما أنذر قوماً في هذه الآية بالخلود في النار على استمتاع بعضهم ببعض وموالاة بعضهم بعضا وكان بعض المؤمنين الذين ألموا ببعض الذنوب ولحقهم من الوصف شيء يحزنهم ذلك حتى يؤديهم الى اليأس لاجرم استثنى الله تبشيرا لهم وإخبارا بحكمته وعلمه وعدله في آية واحدة ولا يبعد هذا بهم فقد ورد أن بعض الصحابة لما سمع قوله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون) قالوا وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ذلك الشرك وقرأ (أن الشرك لظلم عظيم) فلولا أن فسرها لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية الاخرى ليئسوا وقنطوا ومثل ذلك ماجرى عند نزول قوله تعالى (وإن تبدوا ما في أنفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله الخ ثم انزل الله لهم (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) الخ

اذا تقرر هذا وعلم أن الانذار في آية الانعام بالخلود شديد وأن السكوت عليه قصور لو كان في كلام الناس لعد معيبا فكيف بأبلغ الكلام الذى أنزل رحمة للعالمين. فهل بعد هذا يستنكر ذو فهم وتأمل في كلام الله أن يجمع بين وعد ووعيد ونذارة وبشارة في آية واحدة، على أن النذارة بالخلود لمن يستحقونه كما أشار بذلك الحكيم للحكماء الذين يفهمون وان البشارة لمن يستحقون (؟) ممن عرفنا خبرهم في القرآن والاحاديث والله أعلم بهم وبما اقترفوا وجزاء ما كانوا يقترفون : هذا ما أفهمه في الآية مع استحضاري الآيات الاخرى والاحاديث ولم يشف غليلي مارأيته من وقف المتوقف وتأويل المتأول، وهذا هو وجه الاستثناء لاماقالوا من انه يأتي على ما في القرآن حاش لله أن يكون خبر واحد يهدم بناء أخبار أدعمت على العلم والحكمة حتى لوكان مجردا عما أشرنا اليه من وجوه البلاغة والاعجاز ولان نؤوله ليوافقها لكان أسهل من أن نؤولها كلها

ومن العبر أنه قد حضر عندي أخ في الله من أهل العلم وتحاورنا في الموضوع فكان هو فنائيا وأنا بقائيا فما زال يؤول كل آية جئت بها دالة على البقاء بحذق

وبراعة «على طريقة الازهريين» حتى جئت له بآية الاعراف (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) الآية فوجم فقلت ماذا؟ أجب فقال انتظر، ثم بعد هنيهة قال وياليته ما قال: نعم هو كما قال الله تعالى مادامت النار لا يدخلون الجنة ولكنها ستفنى.

فقلت ثم ما ذا بعد ما تفنى أيدخلون الجنة وتزول الاستحالة بفناء النار؟ فضحك من تأويله فلينظر الناصح لنفسه البصير بكلام ربه وليجعل الرحمة في محلها كما اخبر الله بها عن نفسه وينظر الى المشيئة بعين الحكمة ولا ينظر الي صفة دون صفة بعين عشواء. واذ قد ألمنا الى ذكر شيء من وجوه الاستثناء فلنتكلم على المشيئة المستثناة وإن كانت هي أحق بالكلام قبل الاستثناء لذكرها أول الفصل ثانية

اخبرنا الله تعالى في آيات كثيرة أن مشيئته موافقة لحكمته وانه لا يشاء عبثا ولا ظلما قال تعالى (يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما)(١) فهذه الآية تدل

(١) فسر بعضهم الرحمة هنا بالجنة وبعضهم بالتوفيق لما تستحق به والمعنى أنه يدخل المؤمنين المتقين في جنته وأعد للظالمين لانفسهم بالكفر وكبائر المعاصي عذابا أليما اذا ماتوا على ذلك الظلم ولم يتوبوا منه. وليس فيها ما ذكر من معنى الحصر في ان رحمته لا يدخل فيها الا الذين لم يتصفوا بالظلم المقابل للعدل - وانما معناها أن ما أعده للظالمين من حيث هم ظالمون هو العذاب الاليم ان ماتوا على ظلمهم ولم ينلهم العفو وما كل ما أعد لقوم ينالهم كلهم والوعيد باعداد العذاب دون الوعيد بوقوعه كقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) وقد روي تخصيص تعدي الحدود هنا بمخالفة أحكام المواريث المذكورة قبله وأهل السنة مجمعون على جواز العفو عن العاصي بذلك وبغيره والظالم بغير الشرك بالله وهم يؤلون هذه الآية الجازمة بخلود العاصي في النار والعذاب المهين كما يؤل القائلون بانتهاء عذاب الكفار الآيات الواردة فيهم. وغرضنا هنا بيان أن الحصر الذي قال الكاتب انه لا مجال للشك فيه غير صحيح وقد ذكر الله تعالى أن ممن أورثهم الكتاب من المصطفين من عباده من هو ظالم لنفسه فالظلم كالفسق والاجرام يطلق في القرآن على الكفر تارة وعلى المعاصي أخرى. وآية الفتح التي جعلها الكاتب مثل هذه الآية وردت في تعليل

دلالة صريحة لا مجال للشك فيها على أنه لا يدخل في رحمته الا غير الظالمين وانما الذي عرفنا انه لا يشاء الاهم قوله والظالمين اعد لهم عذابا اليما فالناس قسمان ظالم وعادل والدار داران جنة ونار فلما ذكر الظالمين وما اعد لهم عرفنا أن القسم الذى شاء ادخاله في رحمته ضدهم وهم المؤمنون أو المقسطون أو كما تسميهم أفلا يصح أن تنزل المشيئة المذكورة في آية الانعام وهود على هذا التقسيم الظاهر وأن الله لا يشاء فناء النار الذي يهدم كل زجر ووعيد في القرآن ويطمع كل ذي كفر وبهتان وجبار عنيد وشيطان

ومثل هذه الآية قوله تعالى (ليدخل الله في رحمته من يشاء) فهل يظن عاقل أن معنى هذا يدخل الله كافرا الجنة أو مؤمنا بنيا النار (؟) أم انه لا يفعل الا ما اقتضته حكمته التامة : وأن مشيئته في هذه الاية وفي أمثالها مقيدة بمثل آية (هل أتى على الانسان حين من الدهر) وغيرها مما سنذكره قال تعالى (ومن يهن الله فماله من مكرم ان الله يفعل ما يشاء) فالنظر الى قوله تعالى عقب الآية أفليس قوله هنا (ان الله يفعل مايشاء) كقوله عقب آية هود (ان ربك فعال لما يريد) التي كاد يشبهها علينا ابن القيم رحمه الله بقوله « ولم نعلم ما يريده بهم » أي الذين شقوا قال وأما الذين سعدوا فقال فيهم « عطاء غير مجذوذ » فبالله ألا فتأملوا أيها المنصفون فوالله لقد أخطأ ابن القيم ان كان يعتقد أن قوله تعالى (ان ربك فعال لما يريد) فيها المماع أو اشارة الى فناء النار ومن يفهم هذا الفهم أو يجوزه بعد ان سمع ما أوردناه وما سنورده قال تعالى (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد) ماذا يقول الفنائيون في هذه الآية أيضا أيقولون لا ندري ما ذا يريد الله بأهل الجنة كما قالوا في آية هود والا فما الفرق بين الخبرين فليخبرونا ولهم الثواب [1] فقد علم كل من له أدنى تأمل في القرآن أن

=كف أيدي المؤمنين عن القتال يوم فتح مكة وفسرت الرحمة فيها بالاسلام.

(١) ان الفرق عندهم جلي وان كان لا يدل على فناء النار — وابن القيم لا يقول به — وهو أن الخبر الاول جاء عقب الخبر بادخال المؤمنين الصالحين الجنة بغير استثناء والثاني جاء في كون الذين شقوا في جهنم خالدين فيها الا ماشاء الرب تعالى وهذا الاستثناء مبهم فقالوا لا نعلم ما يريده به وبهم ، ومنهم من كان لهم في القرآن أعلى التأمل لا أدناه وان جاز عليهم الخطأ كما يجوز على غيرهم

ارادة الله تعالى ومشيئته قد علمت في أهل الجنة وأهل النار وأن كلا قد قضي عليه بالخلود في داره التي خلق لها وسعى لها سعيها وظهرت تلك المشيئة في الفريقين بأجلى مظاهرها . فترى أهل النار لا يهتدون ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون ، وأهل الجنة موفقون مهديون(وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)قال تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) ألم يبين الله لنا مشيئته هنا ايضا بالمؤمنين والظالمين؟ ألم يكن ختامها هنا كختامها في سورة هود؟ هل يفهم منها هنا إلا كما يفهم من تلك؟ وأن المعنى لا اعتراض على فعل الله لانه هو الحكمة التامة والعدل الاعلى وأنه لا مكره له ولا راد لما قضاه أم يقال ما قرره الفنائيون الذين نظروا لآية واحدة وتركوا سائر الآيات فقالوا : أما الذين سعدوا فأخبرنا الله أن عطاءهم غير مجذوذ وأما الذين شقوا فلم يبين لنا ماذا يريد بهم. والحق انه بين وبين كما سمعت وعلمت :

واما الكلام في آية النبأ فلا دليل فيها لهم وآخرها يرد عليهم اذ يقول الله تعالى(فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا) ولن تفيد الاستقبال حتى احتج بها الزمخشري على نفي الرؤية (رؤية الله في الجنة) في قوله تعالى لموسى (لن تراني) وفرق بين الخبرين فان هذا نفي الرؤية في الدنيا وأما الثاني فنفي في الآخرة وقوله تعالى آخر السورة (ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) دليل على ان الكافر كان يود لوكان ترابا ولا يعذب خالدا . ولايقال تمنيه ذلك كاف لرؤيته العذاب فحسب دون الخلود لانه لو كان يعلم أن النار تفنى من الآن كما يقولون لظل على أمله ورجائه في رحمة الله (١) كما فهم ابن القيم من حديث لو يعلم الكافر بسعة رحمة الله ما يئس ولو يعلم المؤمن بأليم عذاب الله أو نحو ذلك لقنط وقوله تعالى (لابثين فيها أحقابا) لا يدل على انقطاعها كما قدمنا فانما المقصود التهويل وان الاحقاب قد تأتي متتابعة ولا تتناهى. أرأيت لوكنا هنا في الدنيا خالدين أما كنا نقول مضت علينا أحقاب ونعد الزمن وهو باق كما يمكن أن نعد شيئا لا يحصى بالالوف والملايين وأقصى فصل من

(١) يرد على الكاتب ما نقله هو عن عمر من تمنيه لو كان شجرة تعضد وروى نحو هذا عن الصديق الاكبر...

الحساب كالديشليون وكلما فرغت الفصول أعدناها من الاول عدا ولم يفرغ المدود فمن يستنكر ذلك؟ وهل هذا الا من باب قوله تعالى في أهل النار (خالدين فيها ما دامت السموات والارض) والغرض الخلود الذي لانهاية له لان المخاطبين يجهلون بدء الارض والسموات والمجهول أوله وآخره كالذي لا أول له ولا نهاية فلذلك والله أعلم صور لنا الخلود لنعلم عظمه بالنسبة لبقاء الدنيا وغمرنا القصير فيها فأما المؤمن فيفرح بنعيمه الخالد في الجنة وأما المنافق فيحزن حزنا شديداً وتنغص عليه حياته اذا سمع هذا الوعيد الشديد. فالاول تعلو همته ويقتحم الشدائد بقلب مملوء الصبر والامل والسرور . وذاك يجاهد ليــذب عنه هذه الزواجر ويفر منها فرار الحمر المستنفرة وهي في أثره حتى ينقلب في هوة العذاب السحيق و بئس المصير

و بعد فاما أن تكون هذه الآيات متشابهة أو محكمة. فان كانت متشابهة فقد كان على الفنائيين أن يقولوا آمنا عملا بقوله تعالى (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) وما كان لهم أن يكثروا الكلام ويطيلوا الخصام ويقفوا ماليس لهم بعلم من صفات الله واسمائه ويتحكموا في حكمته ومشيئته بعلمهم القاصر (١) وأن لله أسماء وصفات لا يعلمها للآن أحد كما ورد في حديث (واسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو انزلته في كتابك او علمته أحدا من خلقك اواستأثرت به في علم الغيب عندك الخ ، وحديث الشفاعة اذ يعلم الله تعالى رسوله محامد يحمده بها ، ولا ريب أن المحامد تكون على اسماء تقتضيها وتستحقها والله اعلم أفما كان الاولى بهم أن يسكتوا بعد أن يقولوا آمنا به الخ. وان كانت محكمة فالامر ظاهر ولا داعي للخلاف والجدال والقول على الله بلا علم ولنا اسوة بالصحابة الذين كانوا يسألون عما يعنيهم فيقولون يارسول الله ما أفضل الاعمال. ودلني على عمل اذا عملته دخلت الجنة الى غير ذلك

ولعل في هذا الآن كفاية وله بقية عبد الظاهر محمد

---

(١) يرد على هذا أن ابن القيم قال بالتفويض والوقوف عند قوله تعالى ان ربك حكيم عليم) وجعله نهاية الاقدام في السير في هذا المقام وهو ذو العلم الواسع بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم